بذور الرشد

﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾

تفسير

سورتي الممتحنة والصف

ٱلۡمُيسَّر

• **عنوان الكتاب:** بذور الرشد، تفسير سورتي الممتحنة والصف " الميسر "
• **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي
• **الطبعة الأولى:** 1440هـ - 2019م
• **مقاس الكتاب:** 125 × 190
• **عدد الصفحات:** 156
• **ردمك:** ISBN 978-9931-735-07-6
• **الإيداع القانوني:** السداسي الثاني، 2019.

Copyright © 2019 Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

بدور الرشد

تفسير
سورتي الممتحنة والصف
المُيسَّر

محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

بنيَّة العمل

لا يعنيني في شيءٍ أن أفسِّر القرآن الكريم، فقد فسَّره علماء كرام؛
ولكني أحيا به ومعه، ثم أتخذه منطلقا لفكري، وصبغة لفعلي...
في رحلةِ العمر، وقد جاوزت الخمسين حِجّة؛
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلَّا معية الله جَلَّجَلَالُهُ،
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه ؛
أسأله سبحانه صلاح أمر أمَّتي، وأن يفرج عنها،
ويظهر دينه على سائر الأديان،
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية
الفكري والثقافي والحضاري،
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،
أُشهدُ اللهَ أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتنزيل؛ بعقل
جَمْعِيٍّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،
وتسخر لها سلطة تحميها، وتجند لها سواعد وعقول
خيرة علماء هذه الأمة...
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب
اللّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود

فريق العمل

- الأمانة والتنسيق: أ. جابر ناصر بوحجّام
- الإشراف الفني: أ. جابر موسى باباعمي
- التصميم والتنفيذ الفني: أ. ياسين بوشارب
- متابعة النشر والطباعة: أ. محمد الحاج سعيد
- المراجعون: د. بشير قادرة
  د. حمو الشيهاني
  أ. محمد الأمين بكلي

مقاصد تفسير الرشد

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامَّة، وللناشئة والشباب بخاصَّة.
- عرضُ التفسير في صورةٍ غير منفِّرة لمن لم يألف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثُّل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفَق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلِّها: من سنة نبوية، وآثارٍ عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير مَن بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس من الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسًا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة وحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذه الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استثارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أنَّ الغرض من كلام تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى إعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوَّن من عقول متباينة، وتخصُّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.

بين يدي سورة الممتحنة

الإيمان محور السورة وروحها:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ نداءٌ استهلَّ به الله تعالى السورة استهلالاً زاجرًا، وتوسَّط به عِقدها توسُّطا محبَّبا، ثم ختم به أشواطها ختمًا حازمًا:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾.

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾.

ولقد توالى التعليل بـ«الإيمان» بحرَ السورةِ؛ فليس الذي بينكم وبين الكفَّار خارجًا عن دائرة الاختلاف حول «الإيمان بالله»، و«الإيمان بالرسول»، و«الإيمان باليوم الآخر»؛ وما التفاصيل والجزئيات الأخرى إلاَّ ظلالٌ وتمثُّلاتٌ لهذا الاختلاف العقديِّ الجوهريِّ؛ ولهذا جاء النهي عن موالاة أعداء الله تعالى لأنهم ﴿كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾، ثم إنهم تمادوا في «إخراج الرسول» وإخراجكم من دياركم؛ وما نقموا منه - ولا منكم - إلاَّ ﴿أَن تُومِنُوا

بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾.

ثم إنَّ هؤلاء الكفار ودُّوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فتكونون سواءً، وتمنَّوا أن تلتحقوا بصفِّهم؛ ولو فعلتم لسالَموكم، ولَما أخرجوكم من ديارِكم؛ ولقد كتب الله لكم عبرةً وأسوةً حسنةً في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي قومه الذين اتبعوه بـ«الإيمان»؛ أنهم تبرَّؤوا من قومهم، وقالوا لهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾؛ ثم جعلوا شرط العودة إليهم، والمصالحة معهم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾.

ولا تنفع العبرةُ من كان «الإيمانُ» باليوم الآخر فاترًا في منظومته المعرفية والوجدانية؛ أمَّا من ﴿كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ فله في إبراهيم وفي قومه ﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ هؤلاء الذين تنفعهم الذكرى، ذلك أنَّ ﴿الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ونزل حكمُ معاملة الكفار ومواثقتهم من فوق سبع سماوات أنَّ ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لا حرج في معاشرتهم بالعدل والقسط، و﴿اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ أمَّا الذين ﴿قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فتنوكم في إيمانكم، فلا يجوز لكم أن تتولَّوهم، ولا أن تُسالموهم، ومن يفعل ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثم علَّلت الآياتُ الكريمات امتحانَ النساء اللائي فررن

بدينهنَّ من دار الكفر إلى دار الإسلام، بصفة «الإيمان» التي اتصفن بها، فسماهنَّ تعالى «المؤمنات» حتى قبل امتحانهنَّ؛ ثم قرَّر قاعدة كلية وهي أنَّ حقيقة إيمانهنَّ لا يعلمها إلاَّ الله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾؛ أمَّا علمكُم أنتم فيترتب عنه أن لا تُرجعوهنَّ إلى الكفَّار، وأمَّا علم الله تعالى فثمرته أن يرضى عنهنَّ إن كنَّ مؤمنات حقًّا، أو لا يرضى عنهنَّ إن كنّ هاجرنَ لغرض غير غرض «الإيمان»؛ وليس لكم من الأمر شيء في ذلك.

من هنا تبين أنَّ «الإيمان» مستويان: مستوى بينكم وبين الله تعالى، وآخرُ بينكم وبين العباد:

أمَّا ما كان مع الله جَلَّجَلَالُهُ فهو وحده العليم به، وهو وحده الخبير بحقيقته، ولا يملك أحدٌ أن يزكي أحدًا، أو ينفي «الإيمان» عنه، ولقد قال رسول الله ﷺ: «**هلا شققت على صدره**».

وأمَّا الذي بينكم وبين العباد، فهو محلُّ الأحكامِ والمعاملات: من ولايةٍ وبراءةٍ، ومن إيواءٍ ونصرةٍ، ومن عهودٍ ومواثيقَ، ومن تعاونٍ وتآزرٍ، ومن أموالٍ وأعراضٍ...

ثم بيَّنت سورة الممتحنة ـ بناءً على مُعطى «الإيمان» ـ أنَّ المرأة إذا تباين دينُها عن دين زوجها، وإذا اختلفا في حقيقة «الإيمان» خرجت مِن عصمته، فحرُمت عليه وحرم

عليها: ﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾؛ ثم جاز للمسلمين أن ينكحوا مَن خرجن من الكفر إلى «الإيمان»؛ ولم يجُز لهم أن يمسكوا ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾؛ وفي جميع ذلك جاء التهديدُ والوعيدُ، مقرونا بالتحبيب والترغيب، بعنوان عريضٍ: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيٓ أَنتُم بِهِ مُومِنُون﴾؛ فالأمر موكلٌ إليكم، وإيمانكم هو رادعكم وهو زاجركم من اقتراف ما لا يرضي الله سبحانه.

وقد توجه الخطاب القرآني بالأمر إلى رسول الله ﷺ، وهو في مشهدٍ مَهيب تقشعرُّ له الجلودُ، وترتعد للتفكر فيه الفرائص؛ إنه مشهد المبايعة ﴿للمومنات﴾؛ وأوَّل عهدٍ بينهنَّ وبين الله ورسوله: ﴿أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ﴾ أي يؤمنَّ به وحده سبحانه؛ وثانيهما ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ وهذا هو «الإيمان» بالرسول ﷺ؛ وما بين ذلك أن يمتثلن لما أمر الله ورسوله به، وينتهين عما نهى عنه.

وخلاصةُ القول: التحذيرُ من تولِّي من لا يؤمن بالله جَلَّجَلَالُهُ، ومَن جعل غضبَ الله غايته ورزقه في الحياة؛ ذلك أنَّ هؤلاء في علاقتهم بالآخرة يئسوا منها ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ اَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

ويولد البشر، ويحيَون ثم يموتون؛ ويَلقون ربهم الكريم فيسألهم أمام الأشهاد عن «إيمانهم»؛ ثم يتهمُ الكفارُ بعضُهم

بعضا، ويقولون لمن مالَأهم على الكفر ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُومِنِينَ﴾، ويكون مصيرهم جميعا ﴿فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أمَّا المؤمنون السعداءُ فنور «الإيمان» يهديهم إلى الجنات «خالدين فيها أبدا»، وإلى رضوان من الله أكبر، ثم يقال لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُومِنِينَ﴾.

أرحام توصل، وأرحام تقطَّع:

ورد في سورة الممتحنة مِن ذكْرِ الأرحام والأنساب ما يستغرق الحياةَ كلَّها، وما يرسم مشهد المجتمعات جميعها؛ ولا ريب أنَّ «شبكة العلاقات الاجتماعية» هي الآصرة التي تضبط إيقاع الحضارة؛ فإذا وُصِلت جاءت على إثرها الأمم مَهيبةً كريمةً، عَزيزةً مكينةً؛ وإذا فُصِلت هذه الأرحامُ وتقطَّعت تلكم الأواصر، سارع الفسادُ والظلمُ، والشرُّ والضلالُ، إلى مفاصِل المجتمع؛ ونخر عِظامها، ثم تركها قفرًا يبابًا، لا يجمعها جامعٌ من دينٍ، ولا يربطها رابطٌ من عقلٍ.

والتالي لسورة الممتحنة يتنقل بين أرحامٍ توصَل وأرحامٍ تُقطَّع؛ ذلك أنَّ السبب المحدِّد للوصل أو الفصل هو

«الإيمان والكفر»، وليس أيَّ مصلحة من مصالح الدنيا؛ ولهذا أخرج الكفار رسولهم ﷺ من أحب أرض الله إليه، أي من مكة الكرَّمة؛ وفي فلعتهم الشنيعة تقطيعٌ للأرحامِ عظيمٌ، وظلمٌ للناس كبيرٌ، وإفسادٌ في الأرض شديدٌ.

وكذا إخراج الذين معه، وتعذيبُهم وتشريدُهم؛ ومن صُوَرِ ذلك أن تؤمن امرأةٌ بدين محمد ﷺ فتعامَل مُعاملة الإماء تشريدًا وتنكيلاً؛ حتى تضطرَّ إلى الهجرة والرحيل من أرض قومِها وأهلها، إلى المدينة أو إلى أي مكان آخر تكون فيه آمنة مطمئنة؛ حيث لا يلحقها أذى ممن حارب الله ورسوله.

ويوم القيامة سوفَ تُقطَّع الأنساب والأرحام بين الناس؛ فمن كان مؤمنا دخل الجنة، ومن كان كافرا دخل النار؛ ومن رَحِمِ الحياة الباقية الأبدية تولد أرحامٌ جديدةٌ، وصِلاتٌ دائمةٌ لا تنتهي؛ وتموت العلاقات التي كانت بين الناس في الدنيا، مِن نَسَبٍ، وحسبٍ، ووظيفٍ، ورغيفٍ، وإمارةٍ، وتجارةٍ، وخدمةٍ... ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

في هذا اليوم الشديد المِحال ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ﴾، والحقيقة الكبرى التي نعتقدها ونعمل بموجبها أنه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾؛ ولا تملكون

حيال ذلك الفصل قوَّةً ولا مَنَعةً، إلاَّ أن تكونوا مؤمنين موفِّين، موقنين صادقين؛ يومئذ يَنفع المؤمنين إيمانُهم؛ ويومئذ يضرُّ الكافرين كفرُهم؛ ويومها فقط تتبرأ شياطين الإنس والجن ممن اغترَّ بوساوسها، واتبع سبلَها، وممن خدعته ضلالاتها وشرورُها.

ثم إن الله تعالى يعلِّمنا أن لا نيأس من الكفَّار، وأن نجتهد في دعوتهم بالتي هي أحسن، مهما تلقينا في ذلك من أذًى؛ ذلك أنَّ قلوبهم قد تلينُ إلى الحق يوما مَا، وأنَّ الهداية قد تسري إلى ضمائرهم عاجلا أو آجلاً؛ يقول سبحانه تعالى: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَّجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

وكم في تاريخ الإسلام من عمرٍ وخالِدٍ، لو وعَيْنا.

ثم ينهانا ربُّ الجلال والجمال أن نُعلنها حربا على كلِّ الناس؛ بل الواجبُ هو التفريقُ بين من حاربَنا وظلمَنا وآذانا، ومن لم يمدَّ إلينا يده بالأذى والضرر؛ فيقول سبحانه: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ فهؤلاء وجبت ملاينتهم، وتعيَّنت علينا دعوتهم.

أمَّا الآخَرون الجائرون، فقال في حقهم: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَّتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ

هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

والقاعدة الكلية الضابطة للعلاقة بالناس هي «أن نحبَّ من أحبَّ الله ورسولَه، ونبغض من أبغض الله ورسولَه»؛ فما أعظمَها من آية، وما أروعها من خاتمة للسورة الجليلة، قوله سبحانه: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ اَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

بين يدي سورة الصف

الصورة الإدراكية في سورة الصف:

إنَّ البحوث والدراسات التي تهتمُّ بـ «الصورة الذهنية ـ الإدراكية» باعتبارها آلة للإقناع وتغيير السلوك؛ لم تبق مجرَّد بحوث نظرية فردية، أو دراسات جامعية متخصِّصة؛ وإنما تحوَّلت إلى صناعةٍ دقيقةٍ، وإلى مراكز للتفكير متطوِّرة؛ أي أنها «تمأسست» (اتخذت شكل مؤسَّسات)، وتحوَّلت إلى نقطة مِفصلية في توجيه الرأي العام عبر العالم؛ وواضح أنَّ سحر التأثير لا يزال مُنطلقا من الشمال مُنتهيا بالجنوب.

«الصور الذهنية» (mental images) مصطلحٌ وظِّف في العديد من حقول المعرفة، منها «الفلسفة»، و«علوم الاتصال»، و«علم نفس المعرفة»، و«بحوث اللغة»... ويعني «التمثُّلات الذهنية المحفوظة في المخِّ أو المتخيلة لشيء ماديٍّ، أو مفهومٍ، أو فكرةٍ، أو حالةٍ»، ولا يمكن للإنسان أن ينمِّي فكره، ولا أن يطوِّر علاقاته مع الآخرين بغير التمثلات، والصور الذهنية ـ الإدراكية.

والمصادر عادة تعرِّف الصور الذهنية بالتمثلات (representations)، وتعرِّف التمثلات بالصور الذهنية، فتجعلهما مترادفين؛ ويمكننا أن نعتبر الصورة الذهنية أقرب ما تكون إلى «الصورة الفنية المجسَّدة»، أمَّا التمثل فهو أعمُّ، فهو قد يكون مجسَّما وقد يكون غير مجسَّم؛ وقد يكون معلنا أو مضمرا؛ وقد يكون مدرَكا أو غير مدرك.

الصور المجازية (الذهنية-الإدراكية) منبعٌ خصبٌ للغَوص في النماذج التحليلية أو الكامنة من خلال اللغة وما ارتبط بها من وسائل التواصل؛ فالصورة المجازية ترجمة مباشرة غير واعية أحياناً لطريقة تنظيم النص؛ ولذا، لابد أن يحاول الباحث رصدَ التعبيرات المجازية وتحليلها، إذا هو ابتغى الفهم العميق للنص وما حول النص؛ لأنه سيصل من خلالها إلى الأنماط الكامنة في ذلكم النص.

إنَّ النصَّ - أيَّ نصٍّ كان - يصل إلى حدِّ «التمثُّل المدرَك»، إذا أخذ بعين الاعتبار:

جميع مشاعر الإنسان الظاهرة والباطنة.

واعتبر الإنسان كُلاً جامعًا.

واستجاب لرغبات الإنسان، وسدَّ حاجاته الطبيعية

والبشرية.

ومهَّد له البيئة الصالحة الفعَّالة للفهم والإدراك.

وخاطب كل ملكاته: من الفكر، والحس، والشعور، والمنطق، والإدراك، والخيال...

وجمع بين لطائف الإنسان وأحاسيسه.

وراعى حيثيات الزمان والمكان في المخاطب.

ولقد عرَّف سيد قطب التصوير الفني بأنه «الأداةُ المفضَّلة في أسلوب القرآن؛ فهو يعبِّر بالصورة المحسَّة عن المعنى الذهنيِّ، والحالةِ النفسية، وعن الحادثِ المحسوس، والمشهدِ المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياةَ الشاخصة، أو الحركة المتجدِّدةَ، فإذا بالمعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد؛ وإذا النموذج الإنساني شاخصٌ حيٌّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسَّمة مرئية».

وسورة الصف - على غرار القرآن كله - طافحةٌ بالمجاز، غزيرةٌ في تصويرها الفنيِّ، عميقةٌ في صورها الذهنية ـ الإدراكية وتمثلاتها؛ وهي لوحدها مدرسةٌ لمن أراد أن يهذِّب دليله الفكريِّ، ويجمِّل أسلوبه الأدبي، ويحسِّن منهجه في طرح المواضيع، وفي إقناع الناس

وكسب قلوبهم وعقولهم.

وإنَّا لنطالع هذا التصوير بين ثنايا السورة من العنوان إلى آخر آية في «سورة الصف»:

فعنوان السورة «الصف» يرسم لنا حقيقةً لا ترسمها العناوين الرسمية المدرسيةُ؛ ذلك أنَّ وقوف الناس في صفٍّ واحد، وحركتهم حركة واحدةً، وسكونهم سكونا واحدًا... يصنع منهم مشهدا بديعا في مواجهة العدوِّ الماديِّ والمعنويِّ؛ الخارجيِّ والداخليِّ؛ ولذا فإنَّ الله تعالى ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾؛ ثم إنَّ هذا الصفَّ شبَّهه البيان القرآنيُّ بشكلٍ آخر يألفه الناس ويلمسونه، وهم يسعون إلى تحقيقه في عمارتهم للأرض، إنه شكلُ «البنيان المرصوص» الذي لا شرخ فيه، ولا هوة، ولا هشاشة، ولا اهتزاز...

وصورة الخط المستقيم، والصراط السوي؛ وقد زاغ عنه الكفار بكفرهم، ولم يسيروا عليه، بل شرُدوا عنه، وضلُّوا السبيل، ثم ضعُفوا ووهَنوا؛ حين فعلوا ذلك ﴿أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرفها عن الصوابِّ وعن الحقِّ، ولم يهدها إلى الخير وسبيل النجاة؛ في صورة نجهل تفاصيلها وندرك آثارها؛ فهم في هذا التيه هائمون، وهم في ضلالهم يعمهون: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ

وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ولو أنَّ إنسانا حاول بنفخة فمه أن يطفئ نارا في فُرن، أو لهيبا كبيرًا في غابةٍ؛ لصنِّف في عداد المجانين؛ فكيف به وهو يُجهد نفسه لإطفاء نور الله الذي لا حدَّ له ولا آخرَ؛ ذلك هو منتهى الخبال ومطلق الضَّلال؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ وفي بيان هذه الصورة البديعة نقرأ في الظلال:

«وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسمُ في الوقت ذاته صورةً تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقةُ أنهم كانوا يقولون بأفواههم: هذا سحر مبينٌ .. ويدسُّون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم، وهم هم الضعافُ المهازيل!».

ثم تأتي صورة المتاجرة المُنجية، والمبادلة المربحة؛ وهي التي فيها ربحٌ وفيرٌ ولا خسارة تطالها؛ إنها التجارة مع الله الملك الكريم سبحانه؛ وهنالك أعلى التلَّة يقف الرسول المرشدُ الرحيمُ وينادي بأعلى صوته، ليسمعه من حضر المكان والزمان من الصحابة الكرام، وليسمعه كذلك كلُّ إنسان غاب ولم يحضَ باللقاء، فتلقى صوت الرسول الناصح الأمينِ عبر القرآن الكريم،

أو الحديث الشريف، أو السيرة العطرة؛ لكأنَّه يسمعه غضًّا طريًّا بأذنه وقد صدر من فم نبيه؛ هذا الفم الطاهر الذي يفضح أفواه الكفار الخبيثة، وهي تنفخ لإطفاء النور الأبدي السرمدي؛ أمَّا هو - أي رسول الرحمة - فيدعو الناس إلى الارتباط بالنور الدائم الخالد، فإن هم فعلوا سيخلدون في جنات النعيم، وإن هم أعرضوا حاق بهم العذاب الأليم: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَارَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (10) تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآيات.

ثم تنتهي السورة وقد اصطفَّ الناس فريقين: فريقٌ شاقَّ الله ورسولَه، وفريقٌ أطاع الله ورسولَه؛ أمَّا فريق الأشقياء فإنَّ الهلاك سيستعر فيهم هشيمًا محرقًا، وسيخونهم التأييد، ويحيق بهم العذاب الشديد؛ وأمَّا فريق السعداء فلقد جاءه النصر يرفل من عند الله سبحانه، وقد أعلن عنه جميع الأنبياء، ومنهم عيسى بن مريم وهو يخاطب الحواريين، البيضَ قلوبهم وثيابهم وحقيقة أمرهم؛ ثم أعلن عنه خاتم النبيين محمد ﷺ للناس جميعا إلى يوم الدين:

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ﴾.

تفسير

سُورَةُ المُمتَحِنَة

المُيَسَّر

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُومِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَآ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ (1)

بذور المعنى

- بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: تماشيًّا مع قاعدة أنَّ كلَّ بسملة في أوَّل السورة، هي آيةٌ من تلك السورة، ولها معنى يلقي بظلاله على السياق، ويُرجَع إليه في اللحاق؛ فباسم الله تحدَّد النهيُ عن إلقاء المودَّة لأعداء الله وأعداء المؤمنين، وبرحمة الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عُلِّم المؤمنون كيفية التعامل مع المهاجرات وضوابط ذلك،

وكيفية المبايعة وأحكامها. وتأتي السورة كأنها رسالة، افتُتحت بالبسملة، ثم شُرع الخطاب فيها بـ:

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: وهو خطابٌ للذين اختاروا الإيمان منهجًا للحياة، وصدَّقوا بما جاء به محمد ﷺ من عند ربه، وصدَقوا الله ورسوله والمؤمنين؛ إنَّه خطاب تشريفٍ وتكليفٍ، خطاب رفعةٍ وتحميلٍ للمسؤولية.
- ﴿لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: العداوة هي الكُره والخصامُ، وتباعدُ القلوب والعقول؛ وهي ضدَّ الصداقة؛ وفي الآية نهيٌ عن موالاة أعداءِ الله الذين كفروا به وأشركوا، وأعداءِ المؤمنين الذين أخرجوهم من ديارهم، وقاتلوهم في «بدرٍ» وغيرها.
- والموالاة لها سماتٌ قلبيةٌ ونفسيَّةٌ، وتبعاتٌ فكريةٌ وفعليةٌ، وهي موقف سياسيٌّ مِن الآخر، ونصرةٌ له، واتباعٌ ومعاهدةٌ؛ فالنهي في الآية وفي غيرها أن يتَّخذ المؤمن الكافرَ المعاديَ وليًّا من دون الله؛ وهذا النهيُ خاصٌّ بحادثة حاطب بن أبي بلتعة، وعامٌّ للمؤمنين إلى يوم الدين.
- ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾: الإسلام حالةٌ إنسانيةٌ، لا يدعو المسلمَ أن يحبَّ كلَّ الناسِ، سواءً أكانوا له سِلمًا أو حربًا؛ وسواء حملوا له ضرًّا أو نفعًا؛ وإنما

يعلِّم المؤمنَ أن يحبَّ أولياء الله ورسوله، ويبادلهم المودَّة والنصرة؛ كما يعلِّمه أن لا يحبَّ من أظهر العداوة لله ولدينه ولرسوله وللمؤمنين.

- والمودَّةُ هي حركة القلب نحو الآخر، وشعور بانسجامٍ معه، وإحساس بانجذاب عاطفيٍّ تجاهه؛ ولقد نهي المسلمون أن يلقوا بالمودَّة إلى أعداءِ الله جَلَّجَلَالُهُ.

- ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾: بمثابة التعليل للنهي عن الموالاة والمودَّة؛ ذلك أنَّ أوَّل صفة لهؤلاء أنَّهم كفروا بما جاء به محمد ﷺ من الحقّ؛ أمَّا أنتم فآمنتم بذلك الحقِّ؛ ولا جامع إذن بينكم، فلا يليقُ بكم أن تنصروهم وتُوالوهم، ولا أن تحبُّوهم وتلقوا إليهم بالمودة؛ وهم المحاربون للحقِّ، المبغِضون لأهله وأوليائه.

- ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾: أي هم الذين تفنَّنوا في الكيد من رسول الله ﷺ، وتمادوا في إلحاق الضرِّ بكم؛ أنتم المنسوبون إلى نبيِّكم ﷺ؛ وذلك بأن أخرجوكم من دياركم وأموالكم، ظُلما وعلوًّا، فسادًا وعُدوانا؛ لا لشيء إلاَّ لأنكم آمنتم بالله، وصدَّقتم بما جاء به رسوله «أن تومنوا بالله ربكم» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8].

- ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾: إن كان خروجكم من دياركم، ومن بلدكم، وهجرتُكم مع نبيكم ﷺ... إن كان ذلك ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، و﴿ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾؛ أي لله وحده، لا لغيره، فلا تجعلوا له شريكًا في نيتكم وغايتكم؛ فإن أشركتم بالله أحدا أو شيئا، فقد بطُلت نيتكم، وخاب سعيكم؛ أمَّا إن كان ذلك لوجه الله تعالى، فلا تتخذوا أعداءه أولياءَ لكم، ولا تُلقوا إليهم مودةً تفسِد عليكم دينكم وهجرتكم.

- ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾: المودَّة تكون سرًّا، وإنما تفضحها الأفعال؛ وذلك مثل فعل حاطبٍ، الذي أرسل للكفار رسالة يحذرهم فيها من أنَّ رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ سيأتيهم فاتحًا؛ فمثلُ هذا الفعل المنهي عنه، كان دليلا على ما يحمله القلب تجاه الآخر.

- ﴿وَأَنَآ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾: إن كنتم تستخْفُون من الناس، فإنكم لا تستخفُون من الله تعالى، ولا أمل لكم أن تُخفوا عنه شيئا: لا شعورا ومحبَّة، ولا رأيا وفكرة، ولا فعلا وتصرفا؛ فالله سبحانه عالم بالذي تُخفون، وعالم بالذي تُعلنون؛ ولذا كشف أمر المرأة التي حملت رسالة حاطبٍ، وكشف ما كان يختلج في قلبه وقلبها؛ فأخبر رسوله الكريم ﷺ بذلك؛ فأرسل ثلة

من الصحابة، ولحقوا بالمرأة، ونزعوا منها الرسالة؛ ثم كشفوا سرَّ حاطب؛ إلاَّ أنَّ الله تعالى فتح عليه فندم وتاب واستغفر، فغُفر له، وسامحه رسول الله ﷺ؛ لأنه كان ممن شهد بدرا [رواه الشيخان].

- ﴿وَمَنْ يَّفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾: أي من يوالي أعداء الله، ومن يمنحهم الودَّ؛ فقد زلَّ وانحرف عن الطريق الصحيح، ولم يهتد إلى الصواب؛ فخاب مَسعاه، ولم يبلُغ الغاية التي ينشُدها في الدنيا والآخرة.
- والسواءُ هو الوسطُ، وهو المستوي من كلِّ شيءٍ؛ و ﴿سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ هو وسط الطريق؛ وهو الطريق المستقيم السليم، المستوي والمعبَّد، الموصل للغاية بلا انحراف ولا زيغ.

التشغيل والتفعيل

- قال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، أيُّ عُرى الإيمان أوثق؟ قال: اللهُ ورسوله أعلم. قال: «**الموالاة في الله، والحبُّ في الله، والبغض في الله**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].
- حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صحابيٌّ بدريٌّ، نزلت هذه الآية من سورة الممتحنة في شأنه؛ دخل الإسلام وهاجر

مع المسلمين إلى يثرب؛ شارك النبي ﷺ جميع غزواته التي غزاها؛ فقد شهد غزوة بدر، وصلح الحديبية، وفتح مكة؛ كما بعثه رسول الله ﷺ في العام السادس برسالة إلى المقوقس عظيم مصر، يدعوه فيها إلى الإسلام، فبعث معه المقوقسُ مارية وأختها سيرين كهدية إلى الرسول ﷺ، ولحاطب رواية للحديث النبوي. توفي عام ثلاثين للهجرة، وصلى عليه الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [ابن الأثير: أسد الغابة].

من الفكر إلى الفعل

- الواجب شرعا وعقلا مراجعةُ ميثاق العلاقة بالمُعادي من الكفار، وإلا بقي المسلمون تبعًا لغيرهم، ضعافا متخلفين؛ ولا بد من التفريق بين المحارب الذي أعلن معاداته، وغير المحارب، الذي لا يكن بغضا لله ورسوله والمؤمنين.
- حرم على المسلم أن يبدي لأعداء الله المحبة والمودة، وأن يتعلق بأي ميثاق وعلاقة ودٍّ، مع من أعلن الحرب على الإسلام والمسلمين، ومع من حارب الله ورسوله.
- السبيل السواءُ، والطريق السويُّ، يقضي أن يسير المرء في خط إيمانه ولا ينحرف، وأن يكون موقفُه لصالح قضيته ولا يزيغ، وأن يسخِّر سره وعلانيته لنصرة دينه ولا يجور.
- للقراءة: «**أسباب النزول**» للواحدي علي بن أحمد (ت. 468هـ). و«**أُسد الغابة في معرفة الصحابة**» لابن الأثير عز الدين (ت. 630هـ).

قال الله تعالى:

إِنْ يَّثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿2﴾

بذور المعنى

- ﴿إِنْ يَّثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً﴾: إن يظفَروا بكم، ويتمكَّنوا منكم، أو يصادفوكم في مكانٍ أو زمانٍ فإنهم سينتقمون منكم بحقدٍ، ويُظهروا لكم معاني العداء خالصةً، ولن يوالوكم كما يواليهم بعضٌ منكم.
- يقال ثقِف فلانٌ فلانا غلبه في الخدعة وظفر به، وثقِفه بالرمح طعنه به، والثقاف هو الخصامُ؛ وأعداء الله لا يتوانون من الانتقام بالمؤمنين، والنَّكال بهم، كلَّما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

- ﴿وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ﴾: في مقابل الإلقاء بالمودَّة من قِبل بعضٍ منكُم، فإنَّ هؤلاء يبسطون إليكم أيديهم بالقتال والانتقام، والأسر والتشريد، ويبسطون ألسنتهم بالشتم والفحش من القول.
- وبَسطُ اليد عادةً يكون بالخير؛ لكنَّ هؤلاء لا يملكون منه شيئا، ولذا فهم يبسطون أيديهم بالشرِّ؛ حتى وإن كان في ظاهره خيرًا، أو غلِّف بخيرٍ تحت مسميات كثيرةٍ.
- ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: وتمنَّوا لو تكفرون كما كفروا هم؛ ذلك أنَّ مودَّتهم وموالاتهم خطأٌ فاحش في التصور والمنهج والفعل، وانحرافٌ عظيم عن الصواب؛ وخروجٌ عن سواء السبيل.
- وتمنِّي الفاسد أن يكون الناسُ مثلَه على فساد، مما جُبلت عليه النفوس الحاقدة، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[النساء: 89]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[إبراهيم: 3]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة: 109].

التشغيل والتفعيل

- في الآية أمرٌ للمسلمين أن يكونوا حذرين يقظين، وأن لا يمكنوا أعداءهم مِن أنفسهم وأرواحهم، ورقابهم وأموالهم، وجميعِ مقدراتهم؛ وهي دعوةٌ إلى القوَّة والسلطة والمنعة.
- من تمنى الشرَّ لغيره مطلقًا وبغير ضابطٍ فهو الظالم؛ والمؤمنُ لا يتمنى لأهل الخير إلاَّ الخير، بل ويرجو للمشركين الخيرَ بأن يتوبوا ويؤمنوا بالله تعالى، فتُكتب لهم النجاة في الدنيا والآخرة؛ وإذا أبغضهم فيبغض فيهم صفاتهم لا ذواتهم.
- في حكم تمني الخير للمسلم، قال رسول الله ﷺ في حديث من جوامع الكلم: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانا؛ المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذِبه، ولا يحقِره، التقوى هاهنا** - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - **بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**»[رواه مسلم].
- هل النظام التعليميُّ، والمنافسةُ، والامتحاناتُ، والبطولات بشتى أنواعها، تدفع للتحاسد والتشاحن والتباغض؟

لا ريب أنَّ منه ما يوصِل إلى المحذور والمنهي عنهُ؛ ومنه ما ينمي ملكة المنافسة المحمودة بين الناس؛ فما كان من الصنف الأوَّل فهو حرامٌ قطعًا، وما كان من الصنف الثاني فهو حلالٌ يقينًا، ولا اعتبار للمسمَّيات والشعارات في ذلك، إلاَّ بقدر ما تحمل من مقاصد وغايات.

من الفكر إلى الفعل

- كان رسول الله ﷺ يدعو بـ: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»، ومن قهر الرجال أن يثقف بك الأعداء، فيقهروك ويفتنوك في دينك.
- يلاحظ أنَّ كلَّ صفة من الصفات الواردة في الحديث الشريف، تدفع للتي بعدها، في متتالية حتمية: الهمُّ والحزن يدفعان إلى العجز والكسل؛ والعجز والكسل مقدِّمتان للجبن والبخل؛ والجبن والبخل سببٌ مباشرٌ لغلبة الدين وقهر الرجال. وسواء في ذلك الأفراد والمجتمعات والأمم.
- «**ليس المؤمن بالطعَّان، ولا اللعَّان، ولا الفاحش، ولا البذيء**»، «لست بخِبٍّ، والخِبُّ لا يخدعني». إذا جمع بين الحديث والأثر تبين واقع المسلم في علاقته بالناس: مؤمنهم، وكافرهم.
- من صفات المؤمن أنه يرجو الخير للناس، وإن كانوا أباعد، ومن صفات المنافق والكافر أنه يرجو الشرَّ لهم، وإن كانوا أقارب؛ فكلٌّ إناء بما فيه يرشح.

قال الله تعالى:

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿3﴾

بذور المعنى

- ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ﴾: لا تزال الآياتُ تعالج قضية موالاة الكفار، والأسباب المتوهمة من بعض المسلمين لفعل ذلك؛ ومنها أنَّ أرحامهم وأولادهم في مكَّة يؤذونهم، أو أنهم يؤذونهم فعلا باعتناقهم دين محمد ﷺ؛ ولذا توهموا أنَّ دفعَ الضرِّ عن أنفسهم، يكون بموالاة الكفَّار ومداراتهم.
- والحكم الذي أنزله الله تعالى وفرضه، هو أنَّ هذا العذرَ باطلٌ؛ وأنَّ الأولاد والأرحام لن يحموكم

من النار ومن عذاب الله يوم القيامة، إذا أنتم - لأجلهم وبسببهم - والَيتم الكفار، وألقيتُم إليهم بالمودَّة.

- ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾: أي لا يبقى نسبٌ يومئذٍ، ولن ينفع أحدا إلاَّ إيمانُه وعملُه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ﴾[المومنون: 101]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ اَخِيهِ (34) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: 34- 37]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَابُ﴾[البقرة: 166].

- وما دام الفصل متحقّقا غدًا يوم القيامة، فلا ينبغي للإنسان أن يوالي الكفَّار لأجل أرحامه وأولاده وأمواله... ذلك أنَّ القِصاص سيكون عدلاً وقِسطًا، وسينال العذابَ الأليم، ولن ينفعه أحد منهم يومئذٍ.

- ومن دلالات «الفصل» ومعانيه، في الآية، كذلك: فصلُ القضاء، أي أنَّ الله تعالى يقضي بينكم ويفصِل الحكمَ في شأنكم، والمؤدَّى واحد.

- ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: حتى وإن خفيَ على الناس ما أعلنتم من موالاةٍ للكفار، أو أسررتم من مودَّتهم بقلوبكم؛ فإنَّ الله تعالى بصيرٌ، يعلم السرَّ وأخفَى، ولا تخفى عليه خافية؛ فاحذروا الغفلة

عن هذا المعنى العظيم. ومَن اعتقد أنَّ الله تعالى بصيرٌ بكلِّ ما يعمل لم ينحرف عن سواء السبيل، وحمل نفسه على الثبات على الصراط المستقيم.

التشغيل والتفعيل

- حكمُ العلاقة بالأولاد في المنطق الإسلامي يقوم على أسس هي: أنَّ الله تعالى حببهم إلى أوليائهم، وهذا فطريٌّ ومشروعٌ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ...﴾[آل عمران: 14]؛ وأنَّ الإحسان إليهم والعناية بهم واجبةٌ: ﴿قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم: 6]؛ وأنَّ العمل على صلاحهم والدعاء بذلك واجبٌ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[الفرقان: 74]؛ وأنه لا يغني أحدٌ عن أحدٍ شيئا عند الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: 37].
- في الحديث الشريف: «**الولد محزنة، مجبنة، مجهلة، مبخلة**»[رواه الطبراني]. ومَحزَنة: أي أنَّ والديه يُكثرون الحزن عليه إذا مسَّه سوء؛ ومَجبَنة: أي يحمل والديه على الجبن فلا يجاهدون في سبيل الله، ولا يقولون الحق جبنا مخافة الضرّ؛ مَجهَلة: أي يحملونه على ترك الرحلة لطلب العلم؛ مَبخَلة: أي يدفعون والديهم إلى البخل مخافة الفقر.

- وفي تقديم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾ وفي آيات أخرى ﴿وَاللهُ بَصِيرُم بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ وكذلك في شأن ﴿وَاللهُ خَبِيرُم بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فرَّق البعض بين عمل ظاهر وعمل باطن؛ فما كان منها ظاهرا معلوما للناس قدم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وما كان خفيا لا يعلمه إلاَّ الله قدم ﴿بَصِيرٌ﴾ و﴿خَبِيرٌ﴾. غير أني رصدتُ مواطن في كلام الله تعالى تتخلَّف فيه هذه القاعدة، والمسألة للبحث.

من الفكر إلى الفعل

- «كل امرئ بما كسب رهين» قاعدة كلية في حقيقة التوحيد والعلاقة بالناس وبالله سبحانه.
- «لن تنفعكم أرحامكم وأولادكم يوم القيامة» قاعدة كلية أخرى.
- العمل بصورة «المفتش الخبير»، و«العليم البصير» يحمل الإنسان على الإحسان، وعلى الإتقان، وعلى اليقظة في كل حين وآن.
- المسلم يصون نفسَه من الكفر، ويحمي نفسه من عذاب يوم القيامة، ولا يُغني عنه أحد من الله شيئا؛ ولا اعتبار في ذلك لرحمٍ، ولا ولاءٍ، ولا سلطةٍ، ولا منفعةٍ، ولا مضرَّة...
- للقراءة: «**دلائل الإعجاز**» للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت. 471هـ)، «**من أسرار البيان القرآني**» لفاضل السمرائي.

قال الله تعالى:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآٰؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

بذور المعنى

- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: في حكم موالاة الكفَّار، ضرب الله لنا مثلا، ووضع لنا قدوةً ونموذجًا يُحتذى، من أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ وضرب كذلك مثلا بمن كان مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الإيمان والالتزام بأحكام الدين الحنيف.

- والإسوة والأسوة القدوةُ، قد تكون صفة وخصلة يُقتدى بها، أو شخصًا يُتَّخذ مثالا يُحتذى به. ووصفت الإسوة بالحُسن ﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ ذلك أنها خصلة حميدة يجمل بكم أن تقتدوا بها، والذي وصفها بالحسن هو ﴿اللهِ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وليس أحدًا من الناس، ممن قد يخطئ في التقدير، أو يميل عن الإنصاف.
- ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾: لقد تبرأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والمؤمنون الذين على نهجه من قومِهم، رغم صلة القرابة بينهم، مصداقا للآية السابقة: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ...﴾؛ والأوْلى بكم يا من واليتم الكفَّار، أن تتأسَّوا بإبراهيم وبمن معه، فتهجروهم وتهجروا ما يعبدون من دون الله من أصنام، ومن آلهة موهومة.
- ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: قالوا لقومهم: نحن كافرون بآلهتكم، وبمواقفكم، وبضلالكم، وبكم جميعا؛ ولقد قال سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: 67].
- ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾: وهو

موقف من إبراهيم وقومه: إنه موقف معلَنٌ ظاهرٌ لا نخفيه، كما يخفي البعضُ «تودُّدهم لكم»، وكما «أسرُّوا به» فكشفه الله تعالى؛ نحن أعداء لكم علنًا، والعداوة والبغضاء هي العلاقة الطبيعية بيننا إلى يوم القيامة؛ لن تتغير إلا إذا تغيرتم أنتم من الكفر إلى الإيمان، من الباطل إلى الحق؛ ولا تنتظروا منا نحن أن نرتد كما تودون وتتمنون. ولقد أخبر عنهم تعالى في مطلع، فقال: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

- ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾: أي لكم القدوة - في البراءة من الكفَّار - في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ واستثنُوا من ذلك استغفار إبراهيمَ لأبيه، فلا تقتدُوا به ولا تتأسَّوا؛ فهي حالة خاصَّة، لها حيثياتها، وهي لا تتكرَّر ولا تكون نموذجا لمن بعده؛ وهي التي أوضحها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: 114].
- ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾: ما أُغني عنك من الله شيئا، إن أنت لم تؤمن ولم تترك الشرك

وتعتنق الإيمان؛ ولا أستطيع أن أدفع عنك عذاب الله يوم القيامة.

- هذا سؤال دالٌّ على فقر العبودية لله جل في علاه، وعلى ذلَّة الطالب للمطلوب، وخضوعه المطلق لحكمه سبحانه؛ فالله تعالى هو الذي يستجيب للدعاء، ويهدي ويرحم إذا أراد، وهو الذي إن شاء لم يستجب الدعاء، ولم يرحم من دُعيَ له من مثل آزر، أبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فلا واجب على الله تعالى، ولا شيء يقهره جَلَّ جَلَالُهُ.
- ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾: أعدك أني سأدعو الله تعالى أن يغفر لك، وأن يهديك للتوبة وللإسلام، فتموت على ذلك.
- والآية تنهانا أن نتبع ما فعله سيدُنا إبراهيم، وتنهانا أن نستغفر للمشركين، ولو كانوا أولي قربى وأرحاما: آباء وأمهات، وأبناء وبنات...
- ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: قيل إنَّ هذا مما كان يدعو به أبونا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويدعو به مَن معه؛ وهو مما نتأسى به ونقتدي؛ وليس مما استُثني، فهو إذن ليس متعلقا بـ﴿إِلَّا قَوْلَ

إِبْرَاهِيمَ﴾، بل هو متعلق بـ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾.

- والدعاء فيه إعلان عن العجز إلى الله تعالى، والحاجةِ إلى توفيقه وعونه؛ ذلك أنَّ موضوع الولاية والبراءة مما يشتدُّ أمره على الناس، وهم فيه على حرجٍ شديدٍ، وإذا لم يكن لهم من الله عونٌ ضلوا وأضلُّوا، وأخطؤوا التقدير، ثم انحرفوا عن سواء السبيل.
- ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا عليك اعتمادا كليًّا يا ربَّنا، واستسلمنا لك استسلاما مطلقًا يا إلهنا؛ ولا نعتقد النفع والضر في أحد غيرك، ولذا لا نوالي أحدًا طلبًا لنفعه، أو خوفًا من ضرّه؛ فأنت وحدك أهل للخير، ومصدرٌ للنفع والضر.
- ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾: رجعنا، وتبنا من خطئنا في موالاة عدوِّك وعدونا؛ واستغفرنا من كل ذنب صدَر أو يصدر منَّا.
- ويقال أناب فلان إلى الشيء رجع إليه، وأناب إلى الله تاب ورجع إليه.
- وتقديم ﴿وَإِلَيْكَ﴾ للحصر، أي إليك لا إلى أحد

غيرك رجعنا.

- ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: سواء أصبنا أم أخطأنا، آمنَّا أم كفرنا؛ إليك نعودُ فتحاسبنا على ذلك؛ ولذا نجتهد في إتيان طاعتك، وتجنُّب معصيتك، وذلك في أمر الموالاة وغيره؛ حتى يكون مصيرُنا رضاك وعفوُك، ومغفرتُك وجنَّتُك؛ إلى جوار مَن والينا في الدنيا من المؤمنين، لا من عادَيْنا من الكفار والمشركين والمنافقين.

التشغيل والتفعيل

- لا يزال موضوع العلاقة بغير المسلم موضوعًا شائكا، وقع فيه الكثير من الناس والمجتمعات، والدول والاتجاهات؛ بخاصَّة أنَّ محددات أخرى دخلت في المعادلة، من مثل المذهبية، والمصالح السياسية، والأبعاد الاقتصادية، والقراءات النصية... ولا ريب أنَّ الانتهاء إلى موقفٍ موحَّد بين جميع المسلمين تجاه غير المسلمين من مختلف توجهاتهم، ومشاربهم، مع اعتبار مواقفهم، وقوتهم، وضعفهم، وأيديولوجياتهم... لا ريب أنَّ ذلك غير متاح في مستوى العقل الفرديِّ، بل هو مما ينبغي أن يؤسَّس له في إطار عقل جمعيٍّ، ومرجعية

فكرية، ومؤسسات علمية مسؤولة، غير منقادة لمصالح ظرفية وآنية؛ هذا الموقف لا نزال نفتقده ونفتقر إليه للأسف.

- لا بد من قراءة متأنية للفتن، والثورات، والحراك الفكري... في العالم الإسلامي بعامَّة، والعالم العربي بخاصة؛ على ضوء هذه الآيات، وهذا الدعاء المحير في هذا السياق: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا(بالجمع)، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.
- نُهينا عن الاستغفار للمشركين ولأعداء الله تعالى، غير أنَّنا أُمِرنا بالاستغفار للمؤمنين، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمَ اَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[محمد: 19]. وفي الحديث الشريف، روي أنه نُعيَ إلى رسول الله ﷺ النجاشيُّ ملك الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال: «**استغفروا لأخيكم**»[رواه النسائي]. ومثلُ هذا الاستغفار المشروع والمأمور به كثيرٌ في كلام الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ.

من الفكر إلى الفعل

- التوكُّل عمل القلب وليس عمل الجوارح، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل؛ والفهم الخاطئ لهذا المعنى قد يوصل إلى التواكل.
- تأسيس موقف مسؤول من الآخَر، ضمن دائرة الفكر الإسلامي المعاصر، مما وجب الاجتهاد فيه، بلا هوادة، وبعمل جماعي، لا بمجرد مواقف فردية، أو مواقف مصلحية تابعة.
- بين الالتزام بالواجبات والمطالبة بالحقوق؛ خيط رفيعٌ جدًّا؛ ومن التوكُّل على الله تعالى: التركيز على الواجب أولا، ثم الحقوق تبعًا.
- للقراءة: **التوبة النصوح في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة** لسليم الهلالي (بالانجليزية).

قال الله تعالى:

رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿5﴾

بذور المعنى

- ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هذا مزيدُ دعاءٍ لله تعالى، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن معه، يسألون الله تعالى أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا: مفتونين لهم أو فاتنين.
- مفتونين لهم: أن لا يُنصر الكفَّار على المؤمنين، فيُفتنوا في دينهم وأنفسهم وأهليهم وأموالهم، بالتعذيب والسجن والحمل على الردَّة بشتى صنوف الفتنة.
- فاتنين لهم: وذلك حين يرى الكفار المؤمنينَ

يقترفون السيئاتِ، ولا يلتزمون منهج الله تعالى، فيزهدون في الإسلام، ويكرَهون الانتماء إليه؛ وهذه أشدُّ فتنة من الأولى.

- وهذا واقع المسلمين اليوم؛ فبسبب تخلفهم وفُرقتهم وإعراضهم عن الحقِّ ووهنهم، أعرض العالمون عن الإسلام؛ ووجد أعداءُ الدين فرصةً سانحةً فأوغروا صدور الناس على المسلمين، تحت مسميات كثيرة، على رأسها: الإرهاب، والتخلف.
- ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾: تكرار النداء «ربنا» مرَّة بعد مرَّة لإثارة الرحمة الربانية، وهو دليل تذلُّل وتحبُّب إليه سبحانه؛ والدعاءُ بالمغفرة لأنَّ الإنسان مهما حرص على الإيمان، هو محلُّ تقصيرٍ وتفريطٍ، ومبالغةٍ وإفراطٍ؛ ولولا مغفرة من الله تعالى لما استقام أحدٌ على الصراط السوي.
- ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: إن كنَّا نحن نُفتن ونُغلب، فأنت يا ربنا غالبٌ غير مغلوبٍ، قاهر غير مقهورٍ، كتبتَ العزة لنفسك ولرُسُلك وللمؤمنين؛ حكيم في فعلك، وأنت القادر على أن لا يضيع إيمان المؤمنين، يا ربنا.

التشغيل والتفعيل

- نسأل الله أن يجعلنا مستقيمين في ديننا، متمكنين في دنيانا، ظاهرين غير مستضعَفين؛ حتى لا يُفتن الناس على إثرنا فينفروا من دين الله تعالى، ويموتوا على الشرك؛ فنكون سببا لذلك، وفتنة للكفار لأجل ذلك.
- ما نحن عليه من حالٍ مُزرية وفتنة شديدةٍ، يدعونا إلى إعادة تعريف «أهل الفترة» على أنهم ليسوا فقط من جاء بين رسالتين؛ ولكنهم كذلك من لم يلتق بالحق ناصعًا، فلم يُسلم ولم يؤمن لأجل ذلك؛ وإنما التقى بمسلمين في حالٍ من الضعف والهوان والمعصية، فيكون قد ردَّ باطلاً لا حقًّا، ردَّ صورة مشوَّهة للإسلام لا صورة ناصعةً.

من الفكر إلى الفعل

- التوسل لله تعالى بأسمائه الحسنى مظنة للاستجابة، إذا أخلص الداعي النية لله تعالى، وصدق في سؤاله، واتخذ الأسباب فيما يدعو به سبحانه.
- لا تكفي حركة الإنسان في الكون لتحقيق مراده، بل لا بد من أن يسنده العون من الله جَلَّ جَلَالُهُ، ولذا كان الدعاء مفتاحا لمغاليق الأمور، بابا لنيل المراد.
- المؤمن يصبر على الابتلاء، ويسأل الله تعالى أن لا يصيبه البلاء الذي يفتنه في دينه، وعرضه، وماله...
- لا أحد يكافئ نعمة الله تعالى، ولا أحد يقدِّر ستره عليه؛ ففضل الله سبحانه فوق كل اعتبار.
- من جوامع الكلم في الدعاء النبوي: «**ربنا اجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا**».

قال الله تعالى:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿6﴾

بذور المعنى

- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: إعادة تأكيدٍ، وبيانٌ لحقيقة التأسِّي بإبراهيم وبمن معه، في عدائهم للكفار، وفي ملازمتهم الدعاءَ لله تعالى، وفي حسن ظنهم بالله سبحانه، ورجائهم النجاة في اليوم الآخر؛ وفي رسم خطِّ السير والحركةِ في حياتهم على هذا الإيقاع، وبهذه الصبغة الإيمانية الناصعة.
- ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾: يرجو ثواب الله ولقاءَه؛ والرجاءُ الطمع والأمل، وكذا الخوف

والوجل؛ ورجاءُ المسلم في الله تعالى جامعٌ للمعنيين معًا. ولقد مدح الله تعالى المؤمنين الذي يبتغون إلى ربهم الوسيلة أنهم ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء: 57].

- ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الذي لا يرجو اللهَ ولا اليوم الآخر يتصرَّف بحمق وظلم، فيتولى ويعرض عن الحقِّ، ولا يتخذ الرسل والمؤمنين أسوةً، بل قد يُدْبِر عن منهجهم، وقد يتنكر لما جاؤوا به من الحق المبين؛ ومَن كانت هذه حالُه فإنَّ الله تعالى مستغنٍ عنه، ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت: 6].

- وهو الحميدُ بمعنى المحمودُ في صفاته وأقواله وأفعاله، أي هو أهلٌ لأن يُحمد على نِعمه، سواءً حمدوه هم أم لم يحمدوه؛ إذ الله تعالى في غنًى، ولا حاجة له في شكرٍ ولا حمدٍ من أحدٍ من خَلقه، وإنما الخلقُ هم المنتفعون إذا حمدوا الله جَلَّجَلَالُهُ.

التشغيل والتفعيل

- تمام الآية كأنها دليلٌ على تلازم الاقتداء والتأسّي بالأنبياء والصالحين والإيمانِ بالبعث وباليوم الآخر؛ فمن لم يؤمن استحال أن يَقتدي؛ ومن استنكف عن

الاقتداء لم يبلغ درجة الإيمان، ولم يدرك مقام التوحيد الحق.

- نظيرُ هذه الآية في سورة الأحزاب، قوله تعالى في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[الآية 21]. والإسوة وردت في القرآن الكريم في حقِّ سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه، وفي حق سيدنا محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

من الفكر إلى الفعل

- يقول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا وإنَّ لكل مأموم إماما، يقتدي به، ويستضيء بنور علمه» وإمامنا وقدوتنا وإسوتنا محمد ﷺ، وسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصالح المؤمنين والمؤمنات.
- من حسُن رجاؤه في الله وفي اليوم الآخر حسُن بالضرورة عملُه، وكان مصيره إلى رحمة الله تعالى.
- التربية بالإسوة وبالقدوة: أنجع أسلوب في التربية، ولقد بات الانفصام بين التعليم والتربية، بين القول والفعل؛ مهدِّدا لصرح التربية كلِّه؛ فإذا غاب المربي الأسوة باتت التربية على إثره نوعا من الدجل، ولونا من الدغل.
- للقراءة: «**تذكرة العالم والمتعلم**» لابن جماعة، و«**قناطر الخيرات**» للجيطالي.

قال الله تعالى:

عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿7﴾

بذور المعنى

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾: ليس الإسلام موقفًا عدائيًّا نهائيًّا جامدًا؛ لكنَّه دعوةٌ منفتحةٌ على الناس جميعًا ليعودوا ويتوبوا، ثم يلتحقوا بركب الحقِّ غير خزايا ولا منبوذين؛ ومن ثم فمحقَّقٌ أنَّ بعضا من أعدائكم من كفَّار قريش ستلينُ قلوبهم، وسيحبَّب إليهم الإسلام؛ ذلك أنَّ ﴿عَسَى﴾ تعني طلب شيء ممكنِ الحدوث؛ ولكنَّ أسباب الحدوث مخلوقة ومقهورة لله تعالى؛ ولذا فـ«عسى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تفيد

التحقق واليقين».

- وفي الآية تطييبٌ لخاطر المسلمين، أنهم بمعاداتهم لقومهم الكفَّار، اللهُ تعالى قادر أن يبدل معاداتهم موالاة، ولقد صدق وعدُ الله تعالى، فدخل الكثير منهم الإسلامَ طواعية قبل الفتح وبعده؛ فحسُن إسلامهم، وماتوا على الهداية؛ ومنهم صناديد قريش مثل: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل.
- ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾: على كلِّ شيءٍ، وهو قديرٌ أن يبدِّل من حالٍ إلى حالٍ، وأن يُلين قلوبًا قاسيةً إلى دينه، فتُسلم ويحسن إسلامها؛ والقاعدة أنه «لا مستحيل على الله جَلَّجَلَالُهُ».
- ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: الله تعالى لا يقبل من عباده الكفر: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر: 7]، ويداه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مبسوطتان بالرحمة والمغفرة والتوبة على من أقبل إلى الحقِّ غير جاحدٍ ولا ظالم؛ ومن ثم فلا مبرر للقنوط واليأس في منطق الحقِّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: 53].

التشغيل والتفعيل

- في معاداة المسلمين للكفار يجب أن لا يظلموا ولا يجوروا؛ وأن يجتهدوا في كسبِ قلوب أعدائهم بالإحسان في حدودِ الإحسان، دون ذلٍّ ولا هوانٍ؛ ذلك أنَّ المطلب هو أن يهتدوا لا أن يُصرُّوا على كفرهم وضلالهم؛ ومِن ثم نُهينا أن نَفتن الذين كفروا، كما في الآية السابقة.
- في الآية توجيه لمن هداه الله واتقى أن لا يبالغ في عداوة والديه وأهله وأرحامه، ممن لم يهده الله للإيمان؛ بل عليه أن يتصف بالحكمة والحلم، وأن لا يملَّ من دعوتهم بالتي هي أحسن للحق؛ وأن يكثر من الدعاء لهم أن يهديهم الله القديرُ، الغفورُ الرحيمُ، إلى سبيل الإيمانِ، ويشرح صدورهم للإحسان.
- ولقد بالغ بعض الشباب في معاداة أوليائهم المسلمين، لاختلافٍ بينهم في الرؤية للدين، أو لكونهم مسلمين تقليديًّا؛ فأضرُّوا بالدين، وأفسدوا نصاعةَ الإسلام؛ ومع أنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، وأنه أمر بالصفح والغفران والرحمة، إلاَّ أنهم لا يغفرون ولا يرحمون.
- القاعدة الضابطة للعلاقة بين من اهتدى ومن لم يهتد في حركية الدعوة هي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنَ

اَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُومِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَالِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: 94].

من الفكر إلى الفعل

- لولا مغفرة الله تعالى ورحمته لهلك الناس جميعا: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ فهي إذن فرصةٌ دائمةٌ للتوبة والعودة والأوبة.
- قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**».
- ذكرت ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ 72 مرة بهذه الصيغة في القرآن الكريم؛ ومرتين في سورة الممتحنة؛ وبالمعنى آلاف المرات؛ إمعانا في فتح باب التوبة والمغفرة، وتذكيرا برحمة الله الواسعة.
- للمطالعة: «**مقومات التصور الإسلامي**» سيد قطب.

قال الله تعالى:

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

بذور المعنى

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾: جاء النهيُ من الله تعالى في أوَّل السورة للمسلمين أن يتخذوا أعداءَ الله أولياءَ، وخصِّص بالذين أضرُّوا برسول الله ﷺ، وبالمؤمنين؛ وأضمَروا البغضاء والعداوة لهم؛ ثم جاء الاستثناء في هذه الآية، من الله تعالى؛ أنَّ النهي لا يشمل الذين ﴿لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ في الدين؛ ولم تكن العداوة للمؤمنين من صفاتهم؛ فهؤلاء حقُّهم أن يُحسَن إليهم، ما لم تبدُ منهم عداوة ظاهرة، وبغضاء سافرة.

- ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾: أي الذين لم يُخرجوكم من دياركم لا يشملهم النهي السابق؛ ثم بمفهوم الآية اللاحقة «لم يخرجوكم من دياركم، ولم يظاهروا على إخراجكم»؛ أي لم تكن عداوتهم تعدٍّ على حرماتكم، وأعراضكم، وحدودكم، وأموالكم...
- ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ﴾: لكُم أن تعاملوهم بالبر، وهو التوسُّع في الإحسانِ، والرفق في المعاملة، والعدل في القضاء؛ وإن كانوا من الوالديْن فبالطاعة والمعاشرة الحسنة؛ ولكم أن تعاملوهم بالقسط، وهو أن تعدلوا في حقهم ولا تجوروا، وأن تُعطوهم حصَّة من المال ونصيبًا وقسطًا مما رزقكم الله تعالى، تُلينون به قلوبهم للحقِّ وللإسلام.
- وقد سبق أنَّ الله سيجعل المودة في قلوب بعضهم، فيميلوا إلى الإسلام، ويحسُن إسلامهم. ولقد شُرعت الزكاة لـ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ بحكمة تليين قلوب الكفار، وإقامة الحجة عليهم؛ ولقد اختار جمهور الفقهاء بقاء هذا السهم إلى يوم القيامة، وأنه ليس مقتصرا على صدر الإسلام.
- ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: المقسِط هو المنصفُ من نفسه والواصلُ الناسَ بالرحمة. يقول تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: 8].

وقد عرَّف الرسول ﷺ المقسطين بأنهم: «**الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا**»[رواه مسلم] أي فيما تولوا من إمارة أو قضاء أو مسؤولية.

التشغيل والتفعيل

- لا خلاف أنَّ المستعمرين - بكل أشكالهم القديمة والحديثة، الظاهرة والمتنكرة - يدخلون في الصنف الذي نُهينا عن موالاتهم؛ ذلك أنَّ جميع الصفات تحقَّقت فيهم: فهم حاربوا الله ورسوله، وأخرجوا المسلمين من ديارهم وأبنائهم، وأظهروا العداوة والبغضاء، وهم يتربصون بأهل الوطن المستعمَر، ويعبثون بحياتهم ومقدَّراتهم.
- الآية دليل على وجوب حبِّ الوطن ﴿دِيَارِكُمْ﴾ بدلالة الاقتران «بين المقاتلة في الدين، والإخراج من الديار»؛ وتعريفُ دلالة الاقتران عن الأصوليين أنها «الجمع بين شيئين أو أشياءَ في الأمر أو النهي، ثم يُبَيَّنُ حكمُ أحدهما، فيُستدلُّ بالقران على ثبوت ذلك الحكم للآخَر» وفي الآية قرِن الإخراج من الأوطان بالمقاتلة في الدين، فصار الحكم واحدًا.
- يقول القطب اطفيش: «والإقساط لا يُنسخ كما زعم

بعضٌ أنه منسوخ بآية القتال؛ وذلك فيما ليس فيه إهانةُ الإسلام، وأمَّا ما فيه فلا يجوز؛ لأنه غير عدلٍ»[تيسير التفسير].

- يقول البشير الإبراهيمي في الاستعمار الفرنسي: «يا معشر الجزائريين، إنَّ الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا ﷺ: «**إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك**»؛ فهو قد خرج من أرضكم، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلاَّ فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها».

من الفكر إلى الفعل

- في الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن** عَزَّوَجَلَّ، **وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما وُلُّوا**».
- القابلية للاستعمار أشد فتكا بالمسلمين من الاستعمار نفسه؛ فهو يسكن خارج الديار، وهي تجثو على القلوب، وتعشش في الصدور.
- هل من علم يكون بمثابة «علم اجتماع الاستعمار» ينطلق من أسس الفكر الاستعماري لفهم ظاهرة الهيمنة الغربية على الروح الشرقية، بروية وفهم عميق؟
- «حبُّ الوطن واجب، وهو من الفطرة» بدليل الآية، وبدليل آيات وأحاديث كثيرة، ثم بدليل سيرة المصطفى ﷺ.
- للقراءة: «**آثار البشير الإبراهيمي**» (في خمس مجلدات) إعداد أحمد طالب الإبراهيمي. و«**الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**».

قال الله تعالى:

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

بذور المعنى

- ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾: النهي بالموالاة والأمرُ بالمعاداة يخصُّ الذين قاتلوا الله ورسوله، وآذَوا المؤمنين، وظاهَر بعضُهم بعضًا في ذلك. ومثال ذلك مشركو مكَّة، منهم من قاتل المسلمين، ومنهم من أعان على القتال.
- ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾: إمَّا أخرجوكم بالقوة، أو بالتضييق عليكم حتى تخرُجوا؛ ولم يكن ذلك خِفية، أو فيه شبهةٌ؛ وإنما يفعلون ذلك انتقامًا منكم، يغيظونكم به، ويظاهر

بضعهم بعضا، أي يتعاونون ويتآزرون في ذلك؛ و﴿وَظَاهَرُوا﴾ مشتقٌّ من الظهر، أي ساند بعضهم بعضًا وكانوا لهم ظهرا وظهيرا؛ وفي القرآن الكريم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:88].

- ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾: حرَّم الله تعالى اتخاذ هؤلاء المعتدين المحاربين أولياءَ، ونهى عن مصالحتهم ونُصرتهم مطلقًا.
- ومن عجبٍ أنَّ المظلوم أحيانا يميل إلى استعطاف الظالم، بل والتبريرِ له، لضُعف في فكره، ولاهتزاز في شخصيته؛ ومن ثم يتولاه ويتودَّد إليه في الغالب ابتغاء المصالح الآنية المادية الرخيصة.
- ﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أولئك الذين ظلموا أنفسهم باقتراف ما نهى الله عنه، وظلموا إخوانهم المسلمين بموالاة أعدائهم، وظلموا الكفار أنفسَهم لأنهم بتوليهم يُغرونهم بالبقاء على الكفر، ويقوُّون شَوكتهم، فلا يجدون الفرصة للتوبة إلى الله سبحانه؛ ثم ظلموا أنفسهم بأن دنَّسوها بالخيانةِ؛ والخيانةُ أخسُّ الصفات البشرية، وأشدُّها فتكا بالأمم والمجتمعات والحضارات.

التشغيل والتفعيل

- من صور مقاتلة المستعمْر لأهالي البلاد الإسلامية المستعمَرة: غلقُ المدارس، وتجهيل الناس عُنوة، ومحاربة كلِّ أشكال تعليم القرآن الكريم، والسنةِ النبوية، والقيم الإسلامية، واللغة العربية، بل وحتى علوم العصر؛ ولقد دخلت فرنسا الجزائرَ ونسبة الأمية فيها أقلُّ من عشرين في المائة، ولما خرجت بعد قرن وثلث من الظلم والجور كانت نسبة الأمية أكثر من ثمانين في المائة.
- نقلَ البعض نسْخ هذه الآية والتي قبلها بآية: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[التوبة: 5] والصواب أنَّ الآيتين لا تشملان المحاربين، وإنما تعنيان أهل الذمة، والمسالمين، وأهل المعاهدة؛ ثم تستثني من نقَض منهم العهد، وتحوَّل من هذه الحال إلى حال القتال؛ والقاعدة أنه «لا نسخ بين آيتين غير متزاحمتين في الدلالة».
- ويبقى السؤال مطروحا: كيف نكيِّف الوضع الحالي للمسلمين على ضوء هذه الآيات، لا بمجرد الرأي النظريِّ، ولكن بما يضمن سلامة العمل والنزول إلى أرض الواقع؟ ومن له الصلاحية، والكفاءة، والفعالية، لفعل ذلك؟

من الفكر إلى الفعل

- النهي عن موالاة المحارب والمعتدي قائم إلى يوم القيامة، والأسماء لا تغير من المسميات شيئا.
- أي تبرير ومعاونة للظالم يعدُّ في حكم الشارع ظلما جديدا، ولعلَّه أشد فتكا بالأمة من الظلم الذي يأتي من الخارج.
- الخيانة وموالاة المحارب كفرٌ، وهي أخسُّ الأخلاق وأرذلها عند الله وعند الناس.
- ويبقى تعليم الناسِ الخيرَ من أعظم الجهاد في الإسلام، ومن أنجع صور محاربة الكفر، ومعاداة المشركين؛ الذين يجتهدون ما استطاعوا لتجهيل المسلمين.
- للمطالعة: «**تاريخ الجزائر الثقافي**» أبو القاسم سعد الله؛ و«**جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر ما بين** 1954 و1962» بيار فيدال ناكي.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَآ أَنفَقُوا ذَالِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿10﴾

بذور المعنى

- نزلت الآية بعد صلح الحديبية، وذلك أنَّ رسول الله كتبَ ميثاقًا مع كفَّار مكة، أنه إذا لحق من أهل مكَّة رجلٌ بالمسلمين يُردُّ إلى الكفَّار، وإذا لحق رجلٌ من المسلمين بأهل مكة الكفَّار لا يردُّونه؛ غير أنَّ امرأةً من نساءِ المشركين أسلمت، وهاجرت إلى المدينة، فأعلنت إسلامهَا.

- وجاء الزوج ليستردَّها، فنزل الحكم من السماء، أنَّ العهد إنما كان عن الرجال دون النساء؛ فلم يردَّها إليهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أعطى الزوجَ ما أنفق من مَهرٍ. وجاء الحكمُ فيها أنها تُمتحن، أي تخيَّر بين إيمانها ورجوعها إلى زوجها الكافر؛ فسمِّيت السورة بـ«الممتحَنة».

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: كما بُدئت السورة بهذا النداء الندي المحبَّب إلى المؤمنين، يتكرَّر في صدر هذه الآية، لتقرير حكمٍ ربانيٍّ من أحكام العلاقة بالكفار؛ وهو أنه إذا هربت امرأةٌ من مكة، وهاجرت إلى رسول الله ﷺ في المدينة، وادَّعت أنها إنما فعلت ذلك لأجل الإيمان، وأنها عازمة على الالتحاق بركب المؤمنين؛ فالحكم معها أن تُمتحن وتختبر.

- وقد كان رسول الله ﷺ يستحلف المهاجرات فـ«**يشهدن أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسولُ الله**»، ثم يقول للممتحَنة: «**بالله الذي لا إله إلاَّ هو ما خرجتُ من بغض زوجٍ، بالله ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض، بالله ما خرجتُ التماس دنيًا، بالله ما خرجتُ إلاَّ حبًّا لله ورسوله**».

- ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾: ليس المسلمون، ولا رسول

الله ﷺ بقادرٍ ولا مسؤول عن حقيقة إيمان الممتحَنة؛ وإنما الله وحده هو العليم بسريرتها، أمَّا أنتم فمكَّلفون بعلانيتِها، وبما تقوله وتفعلُه؛ وهذا معلومٌ في أحكام الولاية، أنها لا تلج إلى النوايا، ولا تفتش فيما يخفيه العبد.

- ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: ولقد وصف الله المهاجرات بوصفِ الإيمان ﴿الْمُومِنَاتُ﴾، و﴿مُومِنَاتٍ﴾؛ لأنه سببُ الحكم، وهو الذي تنقطع علاقة الزوجية به؛ ذلك أنَّ المؤمنة تحرم على المشرك: ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُومِنُواْ﴾[البقرة: 221]. فلا يجوز بعد أن عُلم أنها مؤمنة أن تُردَّ إلى الكفار فيفتنوها في دينها ﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.
- ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا﴾: أُعطوهم ما أنفقوا من مَهرِ الزواج، لردِّ الحقوق إلى أهلها؛ لأنها هي التي خرجت من زوجها؛ وهذا من تمام العدل في الحكم.
- والحكم الوارد في هذه الآية دليلٌ أنَّ المسلمين لا ينقضون العهود والمواثيق، ولا يظلمون الناس حقوقهم؛ وإذا نقض الكفار والمشركون عهودهم تحمَّلوا تبعاتِ ذلك، كما كان الشأن في حكم يهود بني النضير، المبسوط أمرُهم في سورة الحشر.

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: رفع الله تعالى الحرج عن المسلمين، وعن هؤلاء النسوة، بأن جوَّز الزواج من المرأة المهاجرة الممتحَنة؛ شريطة أن تنتهي عدتها، وأن يؤتيها مهرَها؛ لتكون زوجا شرعيَّة لا أمة من الإماء.
- ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: هذا حكمٌ آخرُ، وهو أن يُبقي الرجل حين يسلم زوجته في عِصمته، وهي على الشرك أو الكفر؛ فالواجب هو أن يُطلِقها ويطلِّقها، ولا يمسك بعِصمَتها، وهو ما يُعتصم به من عقدة النكاح.
- ﴿وَاسْأَلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ﴾: اطلُبوا من الكفار ردَّ مَهرِ زوجاتكم اللاتي لحقن بهم «وليسألوا ما أنفقوا» وهم كذلك يُردُّ إليهم مهرُ المرأة التي خرجت من الإسلام إلى الكفر؛ فعلَ رسول الله ﷺ مع الممتحَنة.
- ﴿ذَالِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: هذا الحكم في العلاقة الزوجية بين الكافر والمؤمن، وهذا الحكم في المهاجرات، وهذا الحكم بالامتحان... وغيرُه من الأحكام التي وردت في الآية، إنما هو حكم الله من فوق سبع سماوات، وهو عدلٌ كلُّه؛ ليس فيه ظلمٌ ولا جورٌ ولا حيفٌ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يضع شيئا في غير محلِّه، وكلُّ شيء عنده بمقدار وتقدير.

التشغيل والتفعيل

«الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر» قاعدة عامة في الإسلام؛ ومن الأدلة عليها حديث أسامة بن زيد؛ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم. قال: ولحقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم. قال: فلمَّا غشيناه قال: «لا إله إلا الله». قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ فطعنته برمحي حتى قتلته. قال: فلمَّا قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ. قال: فقال لي: «**يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟**» قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذا. قال: «**أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟**». قال: فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[رواه البخاري].

السورتان: الحشر والممتحنة، تُعنَيان بأمر العلاقة بالكفار وبالمشركين وبالمنافقين، المسالمين منهم والمحاربين، المعاهدين وغير المعاهدين؛ وبين ثنايا ذلك تبسُطان القول في العلاقة بين المسلمين فيما بينهم، وهذا من ذاك.

- يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «وإذا كان الأصل في العَلاقة هو السّلم، فالمعاهدات تكون إمَّا لإنهاء حربٍ عارضةٍ والعود إلى حال السلم الدائم، أو أنها تقريرٌ للسلم وتثبيت لدعائمه؛ لكيلا يكون من بعد ذلك العهد احتمالُ اعتداء، إلَّا أنْ يكونَ نقضًا للعهد».

من الفكر إلى الفعل

- من هذه الآيات نفهم قدر المرأة وقيمتها في المنظومة التوحيدية الإسلامية؛ فهي مستقلة عقديا، سواء فضلت الإسلام وهجرت الكفر، أو فضلت الردة من الإسلام إلى الكفر؛ وفي كلا الحالين لا تضيع حقوقها، وتعامل إنسانا كامل الحقوق والواجبات.
- من الآيات نقيس بأن من مسؤولية المجتمع حماية المرأة حين يقع عليها الظلم لضعفها؛ ليس فقط في شأن العقيدة، لكن في جميع مجالات الحياة.
- يبقى سؤال التكييف مع الواقع المعاصر يحاصر الفكر الإسلامي اليوم بجميع مفاصله وتوجهاته، ولا يعفى أحد من تبعاته: كيف نفهم الحكم ونطبقه اليوم؟
- للقراءة: «**العلاقات الدولية في الإسلام**» لمحمد أبو زهرة.

قال الله تعالى:

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿11﴾

بذور المعنى

- ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: إذا لحقت امرأةٌ مؤمنةٌ بالكفار، ولم يحصل زوجها على قيمة المهر، الذي هو حقٌّ مفروض من الله ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾.
- ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: فُهم العقاب في الآية بمعنيين: أي غلبتم الكفار فنالوا منكم عقوبةً، وحصلتم منهم على غنيمةٍ؛ أو عاقبتم بأن هاجرت امرأةُ مشركٍ من الكفار إلى المسلمين، فكان بين أيديكم أن تُعطوا حق المهر لزوجها، فجاءت نوبتكم من أداء

المهر، فلا تؤدوه ولكن اقتصُّوا منه مقابل ما ضاع منكم.

- ﴿فَئَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتَ اَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا﴾: باعتبار الفهم الأول يكون الحكمُ هو إعطاء الذي ضاع حقُّ المهر منه، من صلب الغنيمة التي حصلتموها، عوضا عما فاتكم من حقٍّ؛ أمَّا باعتبار الفهم الثاني فهو أن لا تؤتوا زوج تلك المهاجرة مهرها، بل اقتصُّوه وأنقصوا منه مهرَ المسلمة التي فاتكم حقها. ويبدو الضعف في هذا التوجيه، أنَّ فيه ضياعٌ لحق، واقتصاصٌ من أحد لأحد: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الإسراء: 15]. كما أنَّ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ لا يلائم التوجيه بهذا المعنى. ولذا نرجح الرأي الأوَّل.
- ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِىٓ أَنتُم بِهِ مُومِنُونَ﴾: شَرعت السورة بالخطاب «يا أيها الذين آمنوا»، ثم افتَتحت حكم النساء اللائي يهجرن أزواجهن لأجل العقيدة بـ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ واختتم الخطاب بأن توجَّه إلى المؤمنين والمؤمنات؛ ليوجَّه بعدها إلى رسول الله ﷺ بـ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾، وهذا نظير ما جاء في سورة الحشر: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾؛ ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِىٓ أَنتُم بِهِ مُومِنُونَ﴾ ذلك أنَّ الصلة لتعليل الحكم وفق قاعدة: «إنَّ من مقتضى

الإيمان بالله التقوى، وإيمان بلا تقوى لا ينفع صاحبه».

التشغيل والتفعيل

- حيثيات الآية والتي سبقتها دافعة للتفكير جديًّا في قوانين الحقوق بين المختلفين في العقيدة والدين، وبخاصَّة في حقوق المرأة التي تكون غالبا ضحية لتبعيتها للرجل، وللظلم الذي يطالها ولا تقدر على رده؛ فتدعو المسلمين إلى العناية بتلك المرأة، سواءً أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة: «**اتقوا الله في النساء**»[رواه مسلم].
- القوة والغلبة والتمكين شرطٌ أساسٌ لفرض أحكام الإسلام العادِلة على المسلمين وعلى غيرهم؛ وفق صبغة من السِّلم والعدل؛ وضعفُ المسلمين يجرِّئ أعداءَهم عليهم، فتختلُّ موازين الحق والعدل في العالَم؛ ويتجرَّع المسلمون الويلاتِ، وتهوى على إثرهم أممٌ كثيرة، من البلاد الضعيفة، حتى وإن كانوا من غير المسلمين؛ ولا يملك المسلمُ حيال ذلك إلاَّ التأفف والحسرة، لا غير. ومن ثم ففقه القوة والعدل واجبٌ شرعيٌّ وحضاريٌّ يقوم على عاتق المسلمين في كل عصر، فهل نحن فاعلون؟.

من الفكر إلى الفعل

- يلاحظ في التشريع الإسلامي الاعتناء بأدق التفاصيل حين ترتبط بالحقوق؛ وهو حريص حتى على حقوق الكفار.
- ليس الإسلام مسيحية، ولكنه دين توازن وعدل، لا دين تسامح مطلقٍ؛ فهو حريص على قاعدة «لا تظلمون ولا تُظلمون»، ولا ينهى عن الظلم فقط، ولكن كذلك أن لا نُظلَم.
- وهذا فحوى الدعاء المأثور: أنَّ النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزلَّ أو نضلَّ، أو نظلِم أو نُظلَم، أو نجهل أو يجهل علينا**».
- للقراءة: «**نحن الجديد**»، و«**المسلمون في ظل العلمانية**» طارق رمضان.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿12﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾: مبايعةُ الرسول ﷺ في فتح مكة كانت للرجال مصافحةً باليدِ، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ على الصَّفا؛ أمَّا النساء فبايعن رسول الله بأن أدخلن أيديهنَّ في إناءٍ به ماءٌ، كانت يده الشريفة قد غُمست فيه؛ بهذا تلامِس الواحدة منهنَّ قطرات الماء التي لمستها يده الكريمة، ثم تبايع.
- ﴿عَلَىٰٓ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا﴾: لا يُشركن بالله شيئًا

من الأصنام، وهو بمثابة إعلان الشهادة «أن لا إله إلا الله» وكونهن يبايعن رسول الله ﷺ بمثابة «وأنَّ محمدا رسول الله»؛ وبهذا دخلن حِمى الإسلام بإعلان الشهادة مبايعة.

- ﴿وَلاَ يَسْرِقْنَ﴾: شيئًا من أيِّ أحد على الإطلاق؛ ولو من أزواجهن أو آبائهنَّ؛ غير أنَّ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان احتجت لدى رسول الله ﷺ وهي تبايع على أن لا تسرق، فقالت: «زوجي شحيحٌ، وكنت آخذ منه دون عِلمه»، قال: **إنك أنت هند؟** قالت: نعم، اعفُ عمَّا سلف عفى الله عنك؛ وقال أبو سفيان لها: ما أخذتْه من مالي في الغابر فهو حلال. وأباح رسول الله ﷺ للمرأة إذا كان زوجها شحيحا أن تأخذ الضروري مما تعول به نفسها وأبناءها»، كما في حديث عائشة، قال ﷺ لهند: «**خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك**»[رواه مسلم].
- ﴿وَلاَ يَزْنِينَ﴾: نُهينَ عن الزنا وعمَّا يلحق به من مقدمات، أو ما ألحق بالزنا من السحاق وما شابهه: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾[الإسراء: 32].
- ﴿وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ﴾: بالوأد، كما كانت العرب تئد بناتها. ومن عظيم خُلق رسول الله ﷺ أنَّ

هندا قالت له، لما سمعت هذا: «يا رسول الله، ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا، والله أعلم بك وبهم» وكانت تعني ولدها حنظلة الذي قتل في بدر. فتبسَّم رسول الله ﷺ.

- وليسأل الواحد منا نفسه: ترى ماذا كنت سأفعل لو كنت في مثل هذا الموقف الذي وقفه رسول الرحمة ﷺ؟ ما أعظم خلق رسولنا الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: 4].
- ﴿وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ كناية عن البطن، وبين ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كناية عن الفرج.
- وفي الكلام كناية عما يحدث من المرأة التي تقول بهتانا وافتراء، وكذبا وزورا؛ عن ولدٍ تأتي به من غير زوجها، ثم تنسبه إلى زوجها.
- أو هو كذبٌ على أحد بالزنى أو السرقة أو غير ذلك مما لم يصدر منه.
- ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: هو مطلق الطاعة لرسول الله ﷺ، بأن لا يعصينه في معروف، سواء بأمر به، أو بنهي عن منكر، فهو من المعروف؛ وما دام رسول الله ﷺ لا يقول إلاَّ معروفا، ولا يأمر إلا بمعروف؛ فإنَّ الطاعة واجبةٌ له على الإطلاق،

وتفسيره: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: 7].

- ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: إذا بايعنك على هذه الأمور الستَّة، بل هي أحكام الدين كلُّها بالنظر إلى ما يترتب عن الأمر الأخير من رسول الله ﷺ: «**لا يعصينك في معروف**»؛ قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى**». قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟!» قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[رواه البخاري].
- ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾: سواءً مما صدر منهن قبل البيعة أو بعدها، زيادة على قبول المبايعة؛ قال تعالى آمرا نبيَّه الحليم: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾[محمد: 19]، ﴿وَلَوَ اَنَّهُمْ إِذْ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: 64].
- ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: الله تعالى بالغُ المغفرة، وهو بالغُ الرحمة؛ يغفر لهؤلاء المؤمنات، ولغيرهنَّ من المؤمنين والمؤمنات؛ شريطة أن يبايعوا الله ورسوله، ويأتمروا بأوامر الشرع، وينتهوا عن نواهيه.
- وحكم المبايعة قائمٌ وساري المفعول لا ينقطع

إلى يوم القيامة؛ فمن بايع رسول الله ﷺ حسُن إسلامه، ومن خان العهد والبيعة مع رسول الله ﷺ فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه.

التشغيل والتفعيل

- الآية دعوة إلى الاعتناء بعِرض المرأة، والحذر من مصافحة يد المرأة الأجنبية، مخافةَ الفتنة؛ ذلك أنَّ رسول الله ﷺ، وهو مَن هو في الورع والخشية من الله تعالى؛ لم يصافح النساء في البيعة، رغم أنهن بمثابة بناته: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[الأحزاب: 6]. ويبقى السؤال عن تكييف هذا الحكم مع وضعنا المعاصر قائماً، وهو من أوكد ما ينبغي أن يشغل الفكر والفقه الإسلامي؟.
- لما أخذ رسول الله ﷺ البيعة على النساء بعد الفتح: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان: يا رسول الله وهل تزني الحرَّة؟ قال: «**لا والله، ما تزني الحرَّة**»[ابن كثير، التفسير]. وفيه أنَّ الزنى عبودية، وأنَّ العرب في الجاهلية لا يقبلونه من حرَّة؛ فجاء الإسلام فحرَّمه على الحرَّة والأمة على السواء؛ ذلك أنه فاحشة ومقت ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.
- تقييد الطاعة بالمعروف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ

فِي مَعْرُوفٍ﴾ مع أنَّ رسول الله ﷺ لا يأمر إلاَّ بمعروف؛ للدلالة على أنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ وأنه لا طاعة لأولي الأمر، ولا لأحد في معصية الله تعالى؛ فالطاعة للمخلوق مشروطة بأن تكون فيما يرضي الله تعالى.

- في «**الإتقان**» يقول الإمام السيوطي: «للناس في الفرق بين الكناية والتعريض عبارات متقاربة: فقال الزمخشري: الكناية ذكرُ الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض أن تذكر شيئا تدلُّ به على شيء لم تذكره». وذلك في توجيه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

من الفكر إلى الفعل

- التعريض والكناية فيما يُستحيا من ذكره، مما نزل به الشرع الحكيم وعُلمنا آدابه؛ ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.
- استفاد الفقهاء من الآية حرمة مصافحة المرأة الأجنبية لغير محرمها.
- صيانة حق المرأة من أوكد الواجبات على المسلمين، حتى وإن لم تكن مسلمة.
- طاعة الله سبحانه من طاعة رسوله؛ ولذا كانت البيعة للرسول ﷺ بيعة لله جَلَّجَلَالُهُ؛ وفي هذا تشريف لنبينا الكريم.
- للقراءة: «**المرأة في الإسلام**» تأليف: محمد الغزالي، وسيد طنطاوي، وأحمد عمر هاشم.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ اَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿13﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾: ذُكر أنَّ بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود لينالوا حظًّا من ثمارهم طمعًا، فنُهوا عن ذلك؛ ولأنَّ مسألة موالاة أعداء الله هي محور سورة الممتحنة، فإنَّ الله تعالى استهلَّ بها السورة، ثم ختمها بها.
- والذين غضب الله عليهم هم قومٌ عرفوا الحقَّ ثم تنكَّروا له؛ وعلى رأس هؤلاء اليهودُ والنصارى الذين وجدوا اسم «الرسول النبي الأُميّ» مكتوبا

عندهم في التوراة والإنجيل؛ ثم مع ذلك كفروا به، وضلوا عن سواء السبيل.

- ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: هم قنطوا ولم يرجوا الآخرة بسبب ضلالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ـ ايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[يونس: 7]؛ هؤلاء المذكورون منكِرون للبعث، فهم يئسوا من الآخرة، كما يئس أهلُ القبور ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ مِن خيرِ الآخرة يوم القيامة، ومن ثواب الله تعالى ورحمته، ومن العودة إلى الدنيا؛ وقد عاينوا هلاكهَم هنالك، فهم بين يدي الله تعالى، ولقد رأوا العذاب ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، في انتظار أن يدخلوها وتكون معرفتهم بها ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾.

التشغيل والتفعيل

- كأنَّ آية الاستهلال وآية الختام عبارة عن قوسين جمعا فيما بينهما كلَّ آيات البراءة من اليهود والكافرين، وعدم موالاة أعداء الله سبحانه.
- في تفسير قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ﴾ قال أبو

حيان: «وفي الآية دليل على أنَّ الكافر لا يستحقُّ على المسلم ولايةً بوجهٍ: ولداً كان أو غيره، وأن لا يُستعان بذمي في أمر يتعلَّق به نصرة وولاية».

- في بيان الآية يقول الطاهر بن عاشور: «وإذ قد كان اليهود لا ينكرون الدار الآخرة، كان معنى يأسهم من الآخرة محتملاً أن يراد به الإعراضُ عن العمل للآخرة؛ فكأنهم في إهمال الاستعداد لها آيسون منها» ومن ثم نصوغ قاعدة وهي: «من لا يعمل للآخرة هو في عداد من يئس منها، ومن عمل لها فهو بحقٍّ ممن يرجوها». اللهم احشرنا مع من يرجو اليوم الآخر، ويرجو لقاءك، ويرجو رحمتك. آمين.

- وكأنَّ أحكام سورة الممتحنة تمهيدٌ لما يرد في سورة الصف من نصرةٍ للمسلمين، ومن إتمام الله نوره ولو كره الكافرون؛ فمن امتثل بأوامر الله تعالى الواردة عن موالاة الكفار المغضوب عليهم، جاءه النصر يرفرف بجناحيه عاليًا، وأتم الله نوره له وأيده بروح منه، وصدق في حقه: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

- كان سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ في قنوته بهذا الدعاء: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك، ونؤمن بك، ونخلع ونترك من يفجُرك؛ اللهم إياك نعبد ولك

نصلى ونسجُد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك؛ إنَّ عذابك بالكفار ملحَق»[المصنف لابن أبي شيبة].

- وإنا بهذا الدعاء المبارك نختم تفسير سورة الممتحنة، سائلين الله تعالى أن ينيلنا ثوابه وأجره، وأن يبلغنا حقيقته وذروة سنامه.

من الفكر إلى الفعل

- ويبقى السؤال: كيف نفعّل أحكام الموالاة الواردة في السورة، كما أرادها الله تعالى، دون أن نوجد لها تبريرات وتعليلات لا تمت إلى العلم بصلة، ودون أن نقع في التطرف وظلم الآخرين؟
- السورة كلها ترشح بمعاني الإعلاء من شأن المرأة، والحرص على عرضها، والأمر بالأخذ بحقوقها؛ إلا أنَّ الناس في بُعدهم عن مثل هذه المعاني يقعون في ظلم كبير، سواء في ذلك الإفراط أو التفريط.
- للقراءة: «**البحر المحيط**» تفسير أبي حيان الأندلسي (ت. 745هـ)؛ و«**المصنف**» لابن أبي شيبة (ت. 849هـ).

تفسير
سُورَةُ الصَّفِّ
ٱلْمُيَسَّر

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿1﴾

بذور المعنى

- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ يَستعيذ المؤمنون بالله من فصل القول عن الفعل، ويسألونه التوفيق في جمع صفِّهم ليقاتلوا الكفار المعادين لدين الله تعالى؛ ورحمةُ الله تعالى تغمر من يؤمن بالرسل ولا يؤذيهم، وهو الذي أخبر البشرية بمقدم رسولٍ من بعدِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ سيكون رحمةً مُهداة من ربِّ العالمين، رسولٍ اسمه أحمدُ؛ وسيكفر به الجاحدون الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأقوالهم وأفعالهم.

- والله الرحمن الرحيم هو الذي ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ وهو الذي جعل الإيمان أعظم تجارة، وجعل التصديق لها بالجهاد في سبيله؛ والجائزة من الله أن يغفر ذنوبكم، ويدخلكم جنات النعيم. وإنَّ لكم ﴿أَيُّهَا الْمُومِنُونَ﴾ عبرةً في الحَواريين الذين نصروا نبيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فآمنت طائفة وكفرت طائفة، وكانت العاقبة للذين آمنوا، كما ستكون لكم إن أنتم آمنتم ونصرتم.

- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: هو إعلام من الله تعالى لما فيه الكون كلُّه من شغل شاغل في التسبيح لله بلا انقطاع، وهو أمرٌ للناس وللمؤمنين أن يلتحقوا بركب المسبِّحين من الملائكة الذين هم في السموات، والذين هم في الأرض؛ وكذا بجميع المخلوقات التي لا تفتر ولا تتعبُ بالتسبيح؛ ومع ذلك فإنَّ الله أهلٌ لأن يسبَّح حتى ولو لم يسبحه أحد من خلقه: ﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: 18].

- ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ارتباط اسمَي الله تعالى ﴿الْعَزِيزُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾ بالتسبيح في مطلع سورة الصف، وسورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الجمعة؛ يوحي بوحدة موضوعية بين هذه السور، التي عالجت المواجهة بين صفّ الإيمان وصفّ

الكفران، بين المسبّحين والمستكبِرين؛ ويذكِّر اللهُ جَلَّجَلَالُهُ الجميعَ، ويعلِّمهم الاعتقاد، أنَّ الله تعالى عزيزٌ غالبٌ، قويٌّ بذاته؛ وأنه حكيم في قوله وفعله، حاكم وقاهر على غيره؛ لا يحكم فيه أمرٌ، ولا يعجزه أحدٌ من خلقه.

التشغيل والتفعيل

- في سبب نزول السورة روى الترمذي في جامعه، أنَّ الصحابيَّ عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: «لو نعلم أيَّ الأعمال أحبَّ إلى الله لعملناه»؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقرأها علينا رسول الله ﷺ. ونستفيد منه طلب الأفضل والأحب عند الله تعالى من الأعمال، للمنافسة فيها[الواحدي: أسباب النزول].
- بدئت السورة بفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ في السور الآتية: الحديد، والحشر، والصف، وبفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ في سورتي الجمعة، والتغابن؛ أمَّا بالأمر ﴿سَبِّحَ﴾ فمستهلُّ سورة الأعلى، وصيغة ﴿سُبْحَانَ﴾ في مفتَتح سورة

الإسراء.

- قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: «**من قال حين يصبح وحين يمسي - سبحان الله وبحمده - مائة مرة لم يأت أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلاَّ أحدٌ قال مثل ما قال، أو زاد عليه**» [متفق عليه].

من الفكر إلى الفعل

- «من قال: سبحان الله وبحمده في يومٍ مائة مرَّة حطَّت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبدِ البحر».
- شُرعت المنافسة في الخيرات والأعمال الصالحة، ونهي عن التحاسد والتباغض، وعن الرياء والمراء والخيلاء.
- هل أفضلية الأعمال نسبية حسب السائل، وحسب العصر، وحسب حاجة الناس؟ أم الأفضلية مطلقة؟ ظاهر النصوص أنها نسبية، والسؤال قائم..
- الاجتهاد في تحقيق العزة لله وللرسول وللمؤمنين من أبلغ أنواع الجهاد الفردي والجماعي في عصرنا.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾: هو توبيخٌ مباشرٌ وصريحٌ من الله تعالى للذين آمنوا؛ ذلك أنهم إنما تزكُو نفوسهم، ويحسن إيمانهم، فتصلح أعمالهم؛ بالتربية التي تجمع بين الرحمة والصرامة، بين الشفقة والقسوة أحيانا.
- فالنداء بـ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تحبيبٌ وتقريبٌ من رب العزة لعباده الضعفاء المحتاجين إليه؛ و﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ استفهامٌ يفيد التقريع والتوبيخ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ اَوَ اَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

- ورد في توجيه الآية أنَّ المسلمين حين قالوا: «لو نعلم أيَّ الأعمال أحبَّ إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى الآيات»، وفيها دلهم على الجهاد في سبيله، وأنه أفضل الأعمال؛ فلمَّا كان يوم أُحُدٍ ولَّوا ولم يثبتوا كما ثبت أصحاب بدرٍ؛ فوبخهم الله تعالى من أن يقولوا ما لا يفعلون.

- ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾: المقت هو أشدُّ البغض وأعظمه، وفعلهم هذا الذي خالفوا فيه قولهم هو ذنبٌ بغيضٌ وقبيحٌ، ومعصيةٌ فاحشةٌ منكَرةٌ. وقد سواه الله تعالى في الوصف بالجدال في قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ ءَايَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ﴾[غافر: 35]، وسواه بنكاح زوجات الآباء: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ اِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً﴾[النساء: 22].

- وزادت الآية هذا المقت شدَّة وكبَرا بأن وصفته أنَّه ﴿عِندَ اللهِ﴾، أي هو مقتٌ لا تسامُح فيه؛ فهو مقتٌ كبيرٌ عند الله لا عند الناس فحسب. ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[القصص: 60] في وصف الإحسان، وما عند الله شديد أليم في وصف الإساءة: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[البروج: 12].

التشغيل والتفعيل

- نتعلم من الآيات أسلوب التربية الربانية؛ وأنَّ القسوة - بمعنى الحزم - أحيانا على من تحبُّ وترحم لازمةٌ وهي لصالحه؛ والمبالغة في اللين قد يفسِد من تربي؛ يقول الشاعر العباسي أبو تمام:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيانا، وحينًا يرحم

- وجَّه بعض المفسرين النداء بـ ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنه تهكم بهم، وبإيمانهم، وأنَّ الآية نزلت في المنافقين؛ والحقُّ أنه لا داعي لأن يخاطَب المنافقون بهذه الصيغة؛ وإنما الخطاب للمؤمنين، وفي أول سورة الممتحنة تقريع شديدٌ مثل الذي في هذا السياق، وكان الخطاب بـ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولا فرق. ثم إنَّ الله تعالى شدَّد المقت على الفعل ولم يخصَّ به الفاعِلين، فدلَّ أنَّ المؤمنين هم المخاطَبون، مع فعلٍ خطأ ممقوت ارتكبوه فاستحقوا عليه التأنيب والتقريع.
- ولقد ورد الوصف بالمقت، وأضيف إليه ﴿كَبُرَ﴾ في هذه الآية المزلزِلة؛ ما يترك المرءَ يسأل نفسه: هل نحن بمنطوق الآية نقترف مقتًا كبيرًا، وقد فصَلنا بين

الفكر والفعل، بين العلم والعمل، وحوَّلنا حياتنا إلى ثنائية متعارضة وخطَّين متوازيين: خطُّ النظر وخطُّ العمل؛ خطُّ الفكر وخطُّ الفعل. ليت شعري متى نخرج من هذه الورطة فرادى وجماعات؟

- «من استوجب مقت الله استعجل عذابه» قاعدة كلية في العقيدة، وهي مانعة من الاستهتار بحكم الله جَلَّجَلَالُهُ، باعثة على التوبة من قريبٍ لمن فصل بين القول والفعل.
- «أن يقولَ الإنسان ما لا يفعله» هذا من النفاق الذي يبغضه الله تعالى؛ أمَّا «أن لا يفعل ما يقوله» فهذا من ضعف الإرادة ووهن العزم، وهو رذيلةٌ.

من الفكر إلى الفعل

- لا بد أن يتطابق قول المؤمن مع فعله، وأن لا ينفصلا؛ حتى يكون مؤمنا حقًّا.
- إذا وبخني ربي فلحبه لي حتى أكون أهلا لرضاه ورحمته، فلأستمع إليه، ولأعمل بما جاء به من أمر، ولأنته عما نهى عنه من وزر.
- إنما أسس «نموذج الرشد» ليعالج سؤال الأزمة التي يعاني منها المسلمون منذ قرون، وهو: انفصام الفكر عن الفعل، واختلاف العلم مع العمل. ومن هذا النموذج ولد «تفسير الرشد» الذي يسعى لتجسير الهوة بين الفكر والفعل، سائلين الله التوفيق والسداد. ولا يزال محلَّ بحث وتطوير.
- للقراءة: «**من الكمون إلى الفعل الحضاري**» محمد باباعمي وطه كوزي.

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿4﴾

بذور المعنى

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾: الصفُّ هو السطر المستقيم في كلّ شيء، والصفُّ من الرجال: الواقفون على خطٍّ مستقيم، في انسجام وانضباط؛ ومما أُلِف فيه الصفُّ الصلاةُ، والجنديةُ... والله تعالى يحبُّ الذين يصطفون في القضية الإيمانية، ويقاتلون كرجلٍ واحد عدوَّهم، يذودون عن حياض الحق ودين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولا يكون قتالهم لحمية أو مصلحة قريبة؛ وإنما يكون لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- ولازم الآية أنَّ الله سبحانه لا يحبُّ الذي يقولون ما

لا يفعلون، فيكونون مشتَّتين متفرِّقين، ولا يقاتلون في سبيل الله، ولا يصفُّ بعضهم بعضا نصرةً للحقِّ؛ وبذلك يخالف قولُهم فعلَهم، وتخالف حقيقتُهم ادِّعاءَهم؛ وبهذا تكون الآية بمثابة التعليل للتي قبلها.

- ومن معاني ﴿يُقَاتِلُونَ﴾: يجاهدون في نشرِ الحق، في جميع مفاصل الحياة؛ ويجتهدون في نُصرة دين الله تعالى، في شتى المجالات؛ كلٌّ حسب ما سُخِّر له؛ ومِن القتال الدفاعُ عن الحياة الكريمة للناس جميعًا، ومحاربة من يهددها ويغتالها، بالغالي والنفيس، وبالنفس والعقل والمال والذرية...
- ﴿كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾: البناء المرصوص هو الملتزق بعضُه إلى بعض بإحكام وانسجام، حتى يصير كأنَّه قطعةٌ واحدةٌ، لا خلل فيه ولا ثغرات، أي مثل الإسمنت المسلَّح؛ أو هو بناء مؤسَّس بالرصاص فهو متينٌ شديدٌ قويٌّ، وهو بذلك يقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام والانقضاض؛ والمؤمنون في قتالهم يحب الله أن يكونوا مثل هذا البنيان.
- رصُّ الصف له دلالتان: مادية: نظامية وعسكرية، تقوم على الانضباط والصرامة والتنسيق والتناغم في الحركة؛ ودلالة معنويةٌ: وهو الرصُّ في الوجهة

لله تعالى، والغايةِ في سبيل الله سبحانه، ورصُّ القلوب بالمحبَّة والمودَّة، والمشاعرِ بالاشتراك والتوافق، والرصُّ الفكري بالتناغم والتلاؤم. ولا يغني جانبٌ عن جانبٍ لتحقيق النصرة والانتصار، ونيل القبول والرضا عند الله تعالى.

التشغيل والتفعيل

- الآية جواب للصحابة الذين سألوا عن أحب الأعمال عند الله، فكان ذلك سبب نزول سورة الصفّ؛ وذلك ما روي في حديث عبد الله بن سلام.
- كما شُرع رصُّ الصفوف في القتال شُرع كذلك في الصلاة؛ فالله تعالى يحبُّ أن يرى الصفَّ المرصوص في الصلاة، ولا ينظر إلى الصفِّ الأعوج شكلاً وروحًا، لا شكلاً فقط.
- ورد مفهوم الصفِّ والصفوف في القرآن الكريم في عدة مناسبات منها: في نشر الدعوة والتوافق في المنهج ﴿وَالصَّآفَّاتِ صَفًّا﴾[الصافات:1]، وفي نداء السحرة لمواجهة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾[طه:64]، ويوم القيامة لأجل الحساب ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾[الكهف:48]، وفي حق الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[الصافات:165].

- حول ما يحبُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما لا يحبُّ؛ من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ يجمل أن تعدَّ بحوث عمليَّة، تصل التحليل والتوصيف بالكيفيات والمناهج، وبالتفعيل والتشغيل، بخاصَّة في المجال التربوي في جميع المستويات.

من الفكر إلى الفعل

- الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا، لا في مجال القتال العسكري فقط؛ ولكن في كل مجالات الحياة، وفي جميع المعارك الحضارية والمعرفية والحركية والاقتصادية؛ فهو أمر عامٌّ، وحالة مطلوبة بلا قيد.
- تسوية الصفوف ورصُّها من تمام إقامة الصلاة؛ وهي عنوان ألفة، ودليل محبة.
- تحرِّي ما يحب الله ليُفعل، وما لا يحبُّ ليُترك؛ من شيمة المؤمن الذي صدق الله في إيمانه.
- للقراءة: «**آثار الحرب في الفقه الإسلامي**» لوهبة الزحيلي، و«**في مدينة الرسول**» لنزار أباظة.

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿5﴾

بذور المعنى

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾: أعطى الله تعالى مثالا للمؤمنين ممن يقول ما لا يفعل، ويأتي المقتَ الكبير، ولا يقاتِل في سبيل الله صفًّا؛ والمعنى: اذكر يا محمدُ أخاكَ موسَى حين خذله قومه وآذوه ولم يقاتلوا معه يوم دعاهم؛ على خلاف الأسوة الحسنة في إبراهيم ومن معه في سورة الممتحنة، وعكس الحواريين مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر هذه السورة.

- كانَ الأذى من قوم موسى لنبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالكفران والجحود، واللجاج والخصام، وعبادة العجل، وطلب رؤية الله جهرة، وقعودهم عن النصرة بخاصَّة، وذلك حين قالوا له: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[المائدة: 24].

- ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾: قد في موضع الحال، أي والحالُ أنكم تعلمون عِلمًا قطعيًّا يقينيًّا أني رسول من الله إليكم؛ ولا تعني التوقُّع أو التقليلَ أو التقريبَ. ولكن، يبقى السؤال: ما الحكمة من عدول الأسلوب من ﴿قَدْ عَلِمْتُمْ﴾ إلى ﴿قَد تَّعْلَمُونَ﴾؟

- ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾: يقال فلانٌ زاغ عن الطريق إذا انحرفَ وحاد عنه، وزاغ عن القصد مالَ عنه؛ وزاغ بصرُه أي ضعُف وكَلَّ؛ وزاغ في حكمِه جارَ وظلَم؛ وزاغ مِن البيت إذا هرب منه وشرُد.

- ومعنى الآية: فلمَّا مالُوا عن الحق، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وضعفوا في اتباع الحق، ولم يصدقوا بما جاء به نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لمَّا فعلوا ذلك أزاغ الله قلوبهم، بأن صرفها عن قبول الحق، فاختاروا الضلالة وتركوا الهدى، وركبوا الزيغ

والانحراف، فحقَّ عليهم العَمى، ونالهم التِّيه.

- ولسائل أن يسأل: ما الحكمة من العدول عن «أزاغهم» إلى «أزاغ قلوبهم»؟ ولا ريب أنَّ المعنى يختلف، ذلك أنَّ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى. ولعلَّ هؤلاء تزيغ قلوبهم، وفيهم بعضُ الصواب من رجاحةِ عقلٍ، أو حسنِ اجتماعٍ... أو غيرها؛ فيكون الزيغ لقلوبهم ولنياتهم مؤذنا بخراب ما سواه.
- ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: الله تعالى لا يوفِّق من فَسق عن أمر ربه، ولا يترك من فضَّل العصيان على الإحسان لحاله؛ والحكم خاصٌّ بقوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعامٌّ لكل من أتى القول وضيَّع العمل، فاختار أن يُحشر مع القوم الفاسقين المتمردين.
- الفسق في المصطلح القرآني لا يخرج عن قسمين أساسيين، هما: «فسقٌ بمعنى الشرك، يرادف النفاق العقديَّ؛ وفسقٌ بمعنى كفر النعمة، ويرادف النفاق العمليَّ، والضلالَ، والفجورَ، والعصيانَ». [معجم المصطلحات].

التشغيل والتفعيل

- من أزاغ الله تعالى قلبه عن الهداية، لم يلطُف به،

وتركه للضلال الذي اختاره هو لنفسه؛ فالله تعالى لا يهديه هداية عصمةٍ وتوفيقٍ، وإن كان سبحانه قد هداه هداية إرشادٍ وتوجيهٍ وبيانٍ.

- أمَّ رسول الله ﷺ الأنبياء في بيت المقدس، يوم أسري به؛ وكان جميعُ الأنبياء وراءه إيذانا منهم باتباعه؛ يقول ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما بعث الله نبيئًا إلاَّ أخِذ عليه الميثاق: لئن بُعث محمد وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمَّته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصرنَّه». والقاعدة الكلية في الإيمان بالرسل والأنبياء: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[البقرة: 285].

من الفكر إلى الفعل

- من زاغ عن الحق أزاغ الله قلبه، ولم يهده إلى الصراط المستقيم.
- قلب المؤمن محلُّ العناية والرعاية، فمن صانه كان قلبًا سليمًا، ومن دنَّسه كان قلبًا أسود يغشاه الرين: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».
- ظلم الرسل وأذاهم على امتداد خط الزمن يكون بالإعراض عن منهجهم، وتشويه أخبارهم، والقول فيهم بما لا يرضي الله سبحانه.
- أكثر الناس أذًى لسيدنا موسى عليه السلام من ادَّعى أنه من أتباعه، ثم كذَّب محمدا ﷺ، والحال أنَّ التوراة والانجيل نقلتا خبر محمد وبشَّرتا به.
- للقراءة: «**قصص الأنبياء**» لابن كثير.

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَاتِي مِنۢ بَعْدِيَ اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِين ﴿6﴾

بذور المعنى

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾: بُعث سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بني إسرائيل: ﴿وَرَسُولاً اِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾؛ ولذلك خاطبهم بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾؛ ولم يقل ﴿يَا قَوْمِ﴾ مثلما قال سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه لا نسب بين عيسى وبني إسرائيل؛ باعتبار أنَّ نسب الإنسان من أبيه، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد من غير أبٍ؛ فهو في ذلك مثل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: مِن معاني مصدِّقا أنه جاء بما يطابق التوراة، وأنه كذلك آمن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وآمن بكتابه التوراة، فلم يكذِّبه، ولم يأت بدينٍ جديدٍ يخالفه.
- والحال أنَّ كلَّ نبيء يبعثه الله سبحانه إلاَّ ويصدِّق الذين من قبله، وسيدنا محمد ﷺ أرسل على فترة من الرسل، فصدَّق بجميع رسل الله والكتب السابقة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾[المائدة: 48]. فالنبوَّة عملية بنائية في تاريخ البشرية، وليست حركةً قائمةً على القطيعة والهدم؛ خلافا لمنطق الحضارات.
- ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: ذكِر سيدنا محمد في التوراة، وفي الإنجيل باسمه ﴿أَحْمَدُ﴾؛ وقد بشَّر به أنبياء الله موسى وعيسى عليهما السلام؛ وفي التوراة: «وامتلأت الأرض من تحميد أحمد»، وكذا ذكِر في الإنجيل بصيغ مختلفة، كما بين ذلك العالم في مقارنة الأديان الشيخ أحمد ديدات رَحِمَهُ اللَّهُ.
- إنَّ اليهود كانوا يهدِّدون كفَّار قريش أنَّ نبيًّا سيرسل، وسيكونون في صفّه، ويقتلونهم شرَّ قتلة؛ ولما جاءهم محمد ﷺ بالحق كفروا به، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: 89].

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: صِفَة بني إسرائيل أنهم يتنكَّرون للحقِّ، ويختلقون الأكاذيبَ؛ هذا الذي فعلوه مع نبيِّهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فآذَوه؛ ومع سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقتلوه بزعمهم؛ ثم مع سيدنا محمد ﷺ، فأعلنوه الحرب؛ قال تعالى مستنكرا: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُم بِمَا لاَ تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؟! [البقرة: 87].
- والضمير في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لسيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل لسيدنا محمد ﷺ؛ وكلا المعنيين وارد.

التشغيل والتفعيل

- التخصُّص في الكتب السماوية، وفي مقارنة الأديان، من أوكد العلوم التي وجب على المسلمين الاعتناءُ بها؛ ولكن للأسف قلَّ هذا الاهتمامُ؛ وقلَّما يولَد أمثال الشيخ أحمد ديدات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من سياقنا الأكاديمي في حاله المتردية اليومَ.

- المؤمن لا يفرق في إيمانه بين رسولٍ ورسول، ويتسمَّى بأسمائهم جميعًا، ويهتدي بهديهم مجتمعين؛ وأهل الكتاب يؤمنون ببعضِ الأنبياء ويكفرون ببعضٍ؛ وفي عقيدة التوحيد: إذا ذكَر أحدٌ نبيئا بسوءٍ، أو كذَّب به، وبما جاء به، كفَر بالحق، وخرجَ من ملَّة الإسلام، ثم انتفى أن يسمَّى مسلمًا.
- «قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده أحدٌ**»[رواه الدارمي].
- تاريخ الحضارات أسِّس معرفيًّا على القطيعة والتنكر للمراحل، وهو في ذلك مختلفٌ عن تاريخ النبوَّات؛ وأوضحُ مثالٍ على ذلك «محوريةُ الغرب» التي نقدها شبينجلر في كتابه «تدهور الحضارة الغربية»؛ ولذا وجب إعادة تأليف التاريخ على أساسٍ من الوحي والنبوَّة.
- اهتمام الأمة الإسلامية بتأليف قصص الأنبياء للناشئة وللصغار باعثٌ على توطيد أواصر الإيمان.

من الفكر إلى الفعل

- نُشهد الله أننا نؤمن بجميع رسله، ونصدِّق بما جاؤوا به.
- من الواجب زرع قصص أنبياء الله في نفوس أبنائنا، حتى يشبوا على حبهم، ويكونوا على علم ودراية بهم.
- النفَس الذي كتب به بعض المستشرقين عن القرآن وعن تاريخ النبوات؛ يحمل نقدا خطيرا، ومغالطات كثيرة؛ يستدعي منا أن نكون جادين في دراسة ونقد مثل هذه الأعمال، بنفس النفَس، في مستوى العمل الجماعي، الذي نفتقده نحن المسلمين للأسف.
- للاستماع: «**المناظرة بين أحمد ديدات وجيمي سواجارت**» وكتاب «**ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ**» لديدات.
- للقراءة: «**رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد**» تأليف مشترك.

قال الله تعالى:

وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧

بذور المعنى

- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾: افترى القولَ ادَّعاه واختلقه وكذَب فيه، والصيغة استفهامٌ إنكاريٌّ أي: لا أحد أظلمُ، وليس أشدَّ ظلمًا، ممن أعظمَ على الله تعالى الكذِب؛ فهو لو كذب على خلقٍ من خلق الله لكان الأمرُ أهون؛ لكن أن يكذب على الله الذي لو شاء لأهلكه ولفضحَه، وأن يكذب على الذي رحمةً منه أمهلَه، ومع ذلك فهو يتمادى في ظلمه لنفسه وللناس أجمعين؛ إنَّ هذا لظلم عظيم.
- الذي افترى الكذب على الله تعالى هو: الذي يقول عن القرآن الكريم ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ ويقول عن

رب العالمين سبحانه ما ليس فيه، وأن ينسب لله تعالى ما لم يقُل، وأن ينصّب نفسَه مشرّعا يحلل ويحرم باسم الله وهو كاذبٌ؛ ومن أمثلته قول بني إسرائيل: «عيسى ابن الله»، وقولهم ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وقولهم ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾...

- غير أنَّ الكذب الذي يفيده السياق هو ما ورد عن موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في تبشيرهما بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل؛ ثم حين جاء الرسولُ الموعود لم يؤمن به اليهود والنصارى، ورفضوا أن لا يكون منهم؛ ثم أخفَوا بعضًا من الكتاب وأظهروا بعضًا، وزوَّروا ما كان فيه إشارة إلى نبوة أحمد الذي ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[الأعراف:157].
- ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى الإِسْلَامِ﴾: دعا الله تعالى اليهودَ والنصارى إلى الإسلام، وبيَّن لهم القيمَ، وأقام عليهم الحجَّة؛ منهم من آمن به فدخل في الإسلام فحسُن إسلامُه، ومنهم من أعرض عنه وكفر وجحَد؛ هؤلاء هم الذين يفترون على الله الكذب ليبرِّروا، وليجِدوا الأعذار التي بها يستنكفون عن الحق؛ قال تعالى: ﴿يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[آل

عمران: 71-70].

- وعبارة ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى الاِسْلاَمِ﴾ فيها إشارةٌ إلى لؤمهم، أي أنهم كذَّبوه وكذَّبوا به في حين أنه كان يحبُّ لهم الخير والنجاة، ويجتهد في دعوتهم للحقّ والإسلام؛ فهم قد واجهوا الإحسان بالإساءة، لؤمًا وجحودًا.
- ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: مَن اختار الظلم منهجًا وسبيلاً، وجاز أن يوصَف بأنه من الظالمين؛ فإنَّ الله تعالى لا يُرشده وقد أبى، ولا يَهديه وقد أعرض؛ وهذا خاصٌّ بمن افترى على الله الكذب، وعامٌّ بكلِّ من رضي الظلمَ صفة، واكتسبها وسمًا ورسمًا.

التشغيل والتفعيل

- هداية الناس جميعا ودعوتهم إلى الحقِّ هو واجبٌ لا ينقطع إلى يوم القيامة؛ ولكنَّ التوفيقَ والإرشادَ ليس بيد من يدعو، هو بيد الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾[البقرة:272]. وتقصير المسلمين في الدعوة إلى دينهم الحقِّ ذنبٌ عظيمٌ، وإثمٌ كبيرٌ.

- في حديث رواه أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان اليهود يتعاطسُون عند النبي ﷺ يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله؛ فيقول: **يهديكم الله، ويصلح بالكم**»[رواه الترمذي].

- وردت صيغة الاستفهام الإنكاري ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في القرآن الكريم تسع مرات: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أربع مرات: في الأنعام مرتان، وفي هود والعنكبوت؛ وفي الصف ﴿الْكَذِبَ﴾ عوض ﴿كَذِبًا﴾؛ ثم جاءت بعبارة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِئَايَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ مرتين، في الكهف والسجدة؛ ثم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ﴾ في البقرة؛ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ في البقرة كذلك. ففي ثماني مرات كان الموضوع «الكذب على الله، والإعراض عن آياته» ومرة واحدة كان عن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

من الفكر إلى الفعل

- معرفة دسائس المبغضين من الكفار من أوكد واجبات المسلمين في عصرنا، مع وجوب محاربة هذه الدسائس بجهاد ومصابرة.
- في صحيح البخاري باب بعنوان «باب الدعاء للمشركين بالهداية ليتآلفهم».
- نُهينا أن نستغفر للمشركين - كما في سورة الممتحنة - ولكن أُمِرنا أن ندعو بالهداية لهم.
- ينبغي أن يجتهد المسلمون في الدعوة إلى دين الله تعالى، بمناهج ووسائل مقنعة، قادرة على تبديد الظلمات التي تملك أسبابها ووسائلها العلمية، والإعلامية، والمادية... إلخ.
- الظالم الذي اختار لنفسه الظلم لا يهديه الله تعالى، وهو أهل شقاوة وشقاء.
- للقراءة: «**كتاب الكبائر**» للإمام الذهبي.

قال الله تعالى:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿8﴾

بذور المعنى

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: مِن مظاهر نور الله تعالى كلامُه ووحيُه على سيدنا محمد ﷺ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة: 15]، وقولهم عنه هو ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يريدون أن يبطلوا به إشعاع هذا النور على الناس أجمعين.
- الآية فيها تهكم بهم أنهم بأفواههم يريدون إنكار كلام الله تعالى ونوره المبين؛ فهم كمن أراد أن يطفئ ضوء الشمس فينفخ فيها بفيه.
- ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: سيبلغ هذا النور

مَداه، وسينتشر هذا الدين في العالمين، وسيَتم الحقُّ بأمر من الله فيبلغه غايتَه؛ حتى وإن كره ذلك الكافرون؛ والكون لا يتوقف على إرادتهم وإنما إرادة الله تعالى هي التي تنفذ فهو سبحانه ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام: 18]، سبحانه وهو القائل: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال: 7].

التشغيل والتفعيل

- في سورة براءة قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾؛ والفرق بين الآيتين ورد فيه الكثير من التوجيه والتعليل، ومن أحسن ما قيل: «أن يطفئوا» أي يقصد الكفارُ إطفاء نور الله تعالى مباشرة، ويقصدون بإرادتهم الغايةَ أي نفسَ الإطفاء؛ أمَّا «ليطفئوا» يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله بصفة غير مباشرة، فهم يطلبون السبب والوسيلة لذلك لا الغاية.
- إرادة إطفاء نور الله تعالى في عصرنا أخذت أشكالا كثيرة، واعتمدت وسائل متطورة وخطيرة؛ من أبرزها تأسيس مراكز لإعادة تعريف الإسلام، بما يلائم توجه العلمانية والعلموية، وبما يستجيب لمتطلبات اليهودية

والنصرانية؛ ولا ريب أنَّ غياب مثل هذه المراكز من السياق الثقافي المسلم، وغياب الوعي بمثل هذه المشاريع المخطط لها؛ يعطي الفعالية لهؤلاء، فُيفسدون على العالم صورة الإسلام والمسلم؛ ومع اليقين أنَّ الله تعالى سينصر دينه، لكن لا بد من حركة المسلمين وجهة النصرة إذا أرادوا أن يكونوا حماة للإنسان والإيمان.

من الفكر إلى الفعل

- لن ينطفئ نور الله تعالى أبدا، قد يبدو خافتا أحيانا، ولكنه سينتصر ويغمر العالم؛ وإنما الذي يتعرض للضعف والسقوط هم المسلمون، فحين يتعلقون بنور الله يعزهم الله، وحين يتنكرون له يذلهم الله.
- ينظَر تقارير مؤسسة راند للأبحاث، وتوقعاتها في إفساد صورة الإسلام، والوسائل المعتمدة لذلك؛ بخاصة من خلال نشر ثقافة الخلاعة والعهر من خلال الأدب والإعلام في العالم الإسلامي.
- للقراءة: «**الظاهرة القرآنية**» مالك بن نبي؛ و«**تاريخ القرآن**» لعبد الصبور شاهين.

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿9﴾

بذور المعنى

- ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾: هو أيْ الله سبحانه لا غيرُه؛ هو الذي وعدَ بأن ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: 32]؛ اللهُ الذي تدَّعُون أنكم تؤمنون به، هو الذي أرسلَ رسولَه بدين يَهدي لأسمى الغايات، ويُرشد لأعلى المقاصد؛ دينٌ هو هدًى للناس، وفيه الهدى للإنسانية جمعاء؛ وفي الإعراض عنه وتركه الخذلانُ والشقاءُ.
- ﴿وَدِينِ الۡحَقِّ﴾: كأنَّ لكل من الحقّ والباطل دينه الذي يقتضيه ويختصُّ به؛ وقد ارتضى الله تعالى

الدينَ الذي هو للحقّ، وهو الحقُّ، فأرسل رسوله ﷺ به، رحمة للعالمين.

- ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: الإظهار النُّصرة والتغليبُ، وأظهره على غيره أي نصره وغلَّبه عليه وأعلاه على جميع الأديان المخالِفة له؛ والله تعالى لم يُبق دينًا من الأديان إلاَّ وهو مغلوب بدين الإسلام.
- استُعمل الدين بمعناه الحقيقي وهو الشريعة، والمجازي أي أهل الدين؛ فإظهار الشريعة جعلُها فوق الشرائع الأخرى، مهيمنةً عليها؛ وإظهارُ أهلِه نصرةُ أتباعه، وتمكينهم على أعدائهم بعد أن كانوا مستضعَفين.
- ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾: ليس الحقُّ رهينًا بأهواءِ المشركين، فما يحبُّونه وما يكرهونه لا يزن شيئا في منطق الحياة؛ والله تعالى: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ﴾[يوسف: 21]، وهو الذي أظهر دينه الحق بعد فتح مكَّة، وجعله دينا ظاهرا إلى يوم الدين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾. فهو وعدٌ من الله تعالى أنجزه ﴿وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾[الزمر: 20].

التشغيل والتفعيل

- «تلاوة القرآن إرشادٌ وبيانٌ لسامعه، ولا مبالغةَ في

ذلك، وكذا إيقاع المعجزة بيانٌ وإرشادٌ، وهي داخلة في الهدى»[اطفيش: تيسير التفسير].

- يقول ابن عاشور: «وقد تمَّ وعدُ الله، وظهر هذا الدين، وملك أهلُه أمماً كثيرةً؛ ثم عَرضت عوارض من تفريطِ المسلمين في إقامة الدين على وجهِه، فغلبت عليهم أممٌ؛ فأمَّا الدين فلم يزل عالياً مشهوداً له من علماء الأمم المنصفين بأنه أفضل دين للبشر»[التحرير والتنوير].
- في سورة التوبة آيةٌ مشابهة لهذه ولا فرق بينهُما لفظًا، وإن اختلفتا سياقًا؛ وفي سورة الفتح، اختلفت الفاصلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدينِ كلهۦ وَكَفَىٰ بِاللَّه شَهِيدًا﴾[الآية: 28].

من الفكر إلى الفعل

- ظهورُ الدين يكون بذاته، ويكون بأهله؛ فأمَّا بذاته فهو ظاهرٌ إلى يوم القيامة، وأما بأهله فهو بجهادهم واجتهادهم، فإذا فرَّطوا وتولَّوا أذاقهم الله الذلَّ والهوان، وسلط عليهم أعداءهم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.
- كلُّ مظهر من مظاهر نصرة دين الإسلام على الأديان الأخرى وجب الاجتهاد فيه؛ ومن ثم كان لزاما على المسلمين التفوُّقُ في جميع مجالات الحياة العلمية والعملية؛ لأنه بتفوقهم يُظهرون الدين الذي يمثلونه بأحسن حال ومثال.
- للقراءة: مؤلفات المفكر الألماني مراد هوفمان، بخاصة «**الإسلام كبديل**»، و«**الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود**»، و«**خواء الذات**».

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَارَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿10﴾ تُؤۡمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿11﴾

بذور المعنى

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: هو النداء الثاني في السورة بـ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فالأوَّل كان تقريعًا وتوبيخًا، وتحذيرًا من الهلاك: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، والثاني جاء توجيها وتحبيبا ودعوة إلى النجاة: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَارَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، والثالث تمثيلٌ وشحذ للهمم حتى تنصُر دين الله فيُظهره على العالمين: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓاْ أَنصَارَ اللَّهِ﴾.

- ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾: استفهامٌ يفيد الإغراء والأمرَ والحثَّ، بمعنى هل أوجِّهكم إلى تجارة جليلةِ الشأن عظيمةٍ؛ ذلك أنَّ صيغة ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ﴾ لا تكون إلاَّ لما هو ثمين ذو مكانة وشأن؛ وهذه التجارة طرفها الأوَّل هو الله تعالى مالِك الملك، وطرفها الثاني هو المؤمن المستجيب للحق، وهو الفقير إلى مولاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة: 111]، وفي الحديث الشريف: «**ألا إنَّ سلعة الله غاليةٌ، ألا إنَّ سلعة الله الجنة**»[رواه الترمذي].
- في كلِّ تجارة ربحٌ وخسارةٌ، رابحٌ وخاسرٌ؛ فكمَا أنَّ التجارة تنجي من الفقر والمهانة، وتمنح صاحبها الغنى والكرامة، كذلك هذه التجارةُ مع الله الكريم تُنجِّي صاحبَها من الخسارة والخسران، ومن الحسرة والهوان؛ وتعِده بالخلود في الجنات ونيل الرضوان.
- ﴿تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: الجملةُ في مقام الاستئناف، أي كأنَّ هؤلاء سألوا: كيف نعمل، وما السبيل إلى الربح في هذه التجارة؟
- فجاءَ الجواب: ﴿تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ولقد كان

الوعدُ من الله تعالى في الآية السابقة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ فاسعوا إلى الإيمان بالله تعالى وقد تنكر له المشركون، وبرسوله الذي كذَّب به الكفار، يظهرْ دينكم في الدنيا، وتنالوا حسنَ الجزاء في الآخرة.

- ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: ولكنَّ الإيمان بالله ورسوله لا بدَّ أن يصدِّقه العملُ أو يكذّبه، فهو يحتاج إلى تكلُفة وإلى عُربون يدفعه المشتري؛ فكان الجهاد في سبيل الله بجميع أشكاله: السلمية والحربية، الاجتماعية والاقتصادية، القلبية والعملية، العلمية والحركية... أي كلُّ ما كان جهادًا واجتهادًا بالمال أو بالنفس، بالوقت أو بالفكر... كلُّ ذلك هو جزءٌ من الصفقة، فمن ترك الجهاد والاجتهاد أوشك أن يخسر المبادلة.
- ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الموازنةُ بين ما تبذلون وما تنالون، بين ما تبيعون وما تشترون؛ تقرِّر أنَّ الربح كلَّه، وأنَّ الخيرَ جميعَه، بل الأخيَر والأفضلَ لكم، أن تؤمنوا بالله ورسوله، تبذلوا العطاء بأموالكم، وتجاهدوا بأنفسكم؛ وإنما تعُون ذلك وتعملون به إذا كنتم من أهل العلم الحقِّ،

والفكر النيِّر؛ أمَّا إن كنتم جهلةً، أو كان علمكم مغشوشًا؛ فإنكم لن تدركوا ذلك.

التشغيل والتفعيل

- كما أنَّ النداء من الله تعالى بـ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وردَ في سورة الصفِّ ثلاث مرَّات: في المستهل، ثم في الوسط، ثم في الخاتمة؛ كذلك ورد في سورة الممتحنة ثلاث مرات وفي ذات المواقع؛ وهذا من جميل التوافق بين السورتين.
- يقول محمد إقبال: «مبدأ الحركة في الإسلام يتلخَّص في كلمة واحدة: الاجتهاد»، وبهذه القاعدة يُفهم عمق الجهاد المأمور به في الآية.
- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للنبيء ﷺ: ما يعدِل الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال: «**لا تستطيعونه**»، قال: فأعادوا عليه مرَّتين أو ثلاثا كلَّ ذلك، يقول: «**لا تستطيعونه**»، وقال في الثالثة: «**مثلُ المجاهد في سبيل الله كمثل الصائمِ القائم القانت بآيات الله، لا يفترُ من صيامٍ ولا صلاةٍ حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى**»[رواه الشيخان].

من الفكر إلى الفعل

- سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حجٌّ مبرورٌ**».
- الواجب على المسلم أن يبحث عن أحبِّ الأعمال إلى الله، وعن أخيرها وأفضلها، ويجتهد في التحلي بها.
- معاني الاجتهاد والجهاد مما يلقَّنه الإنسان في مستويات نموِّه من الصغر إلى الكبر؛ ولكنها إن فقدت دلالتها في فكره وحياته، تحول ذلك الإنسان إلى «إنسان مستهلك» يحمل «إيمانا مستهلَكا».
- للقراءة: «**تجديد الفكر الديني**» محمد إقبال؛ «**الإيمان المستهلَك والإنسان المستهلِك**» محمد باباعمي.

قال الله تعالى:

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿12﴾

بذور المعنى

- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: إن تؤمنوا بالله ورسوله، وإن تجاهدوا في سبيله، يغفر لكم ذنوبَكم على الإطلاقِ؛ فالذي يدخلُ الجنة يكون صفحةً ناصعةً بيضاءَ كأن لم يُذنب قطُّ، وقد تَصفَّى من الأوساخ وتنقَّى من الأدران؛ ولا أحدَ من المؤمنين يدَّعي أنه لا ذنبَ له، وأنه لم يسرف على نفسه أبدًا؛ ذلك أنَّ الإنسان خطَّاء وضعيفٌ: «**وخير الخطَّائين التوابون**»[رواه الترمذي].
- ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾: ولقد

وصف الله تعالى هذه الجنات التي ينالها المؤمن جزاء إيمانه، والمجاهدُ جزاء جهاده، أنها جناتٌ دائمةُ العطاءِ؛ ذلك أنَّ الأنهار تجري من تحتها، فلا ينضُب معينُها، ولا تذبُل خُضرتها؛ فهي حافلة بالفواكه الكثيرة، والظِّلال الوفيرة، والجمال البديع.

- ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: المساكن الطيبة هي التي يكون حسنُها مِن ذاتها، ثم زيد في حُسنها أنها تقع في ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي في حدائق غناء توصف بالخلود والدوام.
- وعدَن فلانٌ بالمكانِ أي أقام فيه، فهي جناتُ الخلد: والغالب في ذكر ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ في القرآن الكريم أن ترتبط بالخلود، وبكون الأنهار تجري من تحتها.
- ﴿ذَالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: فوزٌ لا هزيمة بعده، وربحٌ لا خسارة معه؛ إنَّه الفوز العظيمُ، المقرون برضوان الله سبحانه؛ يقول تعالى في آية تفسِّر هذه الآية: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 72].

التشغيل والتفعيل

- ما الفرق بين ﴿ذَالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، و«ذلك هو الفوز

العظيم»؟ ولقد قرأتُ بعض ما كتب من محاولات بيانية؛ ولكنها لم تف بالغرض، ويبقى السؤال قائما، ومجالا للبحث.

- سمع رسول الله ﷺ رجلا يقول في تشهُّده: اللهم إني أسألك يا الله - وفي رواية بالله الواحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد - أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم. فقال ﷺ: «**قد غُفر له، قد غُفر له**»[رواه النسائي].

- في حديثٍ نبويٍّ شريف يصور علاقة العبد بالمعصية بصورة إدراكية فنيَّة محركِّة للضمائر، مُلينة للقلوب، باعثة على الاستعجال في التوبة والاستغفار، قال رسول الله ﷺ فيما روى عنه عبد الله ابن مسعود: «**إنَّ المؤمن يرى ذنوبَه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه؛ وإنَّ الفاجر يرى ذنوبَه كذباب مرَّ على أنفه**؛ فقال: **به هكذا**. قال أبو شهاب: **بيده فوق أنفِه**».

- ومما يؤخذ من الحديث أنَّ المؤمن يخشى الله تعالى، ويخاف عقابه، ويرجو رحمته؛ فإذا ما أذنب أحسَّ أنَّ ذنبه سيقف حاجزا بينه وبين ربِّه، وسيحول مثل الجبل بينه وبين رحمة الله ورضوانه، ثم إنَّ الله ييسِّر له أمر التوبة، ويعِده بجنات تجري من تحتها الأنهار؛ أمَّا المنافق فلا يخافُ الله، ولا يرجو رحمته؛ فهو يستهتر

بالمعصية، ويستصغرها، ويسوِّف في التوبة منها، حتى إذا تجمعت في سمائه نزلت عليه صاعقة من السماء، فأهلكته وأنالته غضب الله وسخطه، وأردته جهنم وبئس المصير.

من الفكر إلى الفعل

- ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.
- لا يقنط العبد من رحمة ربه، وليستغفر الله، وليتُب من معاصيه، حتى لو بلغت ذنوبُه عنان السماء.
- العالم الحق هو الذي لا يقنط الناس في رحمة الله، وإنما يسعهم برحمة الله، فيزعهم إلى الخير برفق.
- فنُّ التعامل مع العاصي مما وجب على طالب العلم الشرعي التمرس فيه، حتى يكسب قلوبا إلى الحق، ولا يخسر أنفسا إلى النار.
- للقراءة: «**كتاب التوبة**» للحافظ ابن أبي الدنيا.

قال الله تعالى:

وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿13﴾

بذور المعنى

- ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾: إضافةً إلى النعمة الآجلة، وهي النجاةُ من النارِ، ومغفرةُ الذنوب، والجناتُ الخالدات، والمساكن الطيبةُ؛ لكم نعمةٌ أخرى عاجلة، وهي ما كنتم ترقبونه من فتحٍ ونصرٍ منذ صُلح الحديبية.
- وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ شيء من التوبيخ الرفيق؛ لأنهم أحبُّوا العاجل، وفي سورة الفتح قال: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

- ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: هو فتح مكَّة، وذكر البعض أنه كذلك مُطلق الفتوح المباركة، ومنها فتحُ فارس والروم.
- وفي سورة الفتح بيَّن الله تعالى فضائل فتح مكة على المؤمنين، وسماه ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَالِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الآية: 27].
- ﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾: أي فأبشر يا محمد بالفتح، وبشّر المؤمنين بهذا الفتح القريب؛ وأيُّ بُشرى أعظم من التي تأتي من الله تعالى، ثم يؤمَر رسوله ﷺ أن يبلِّغها للمؤمنين؟ وأيُّ خبر أسرُّ وأثلج للصدر من فتح مكة للذين أخرِجوا منها، وظلموا وعذبوا؟

التشغيل والتفعيل

- جُبل الإنسان على حبّ العاجلة، وعلى ترك الآجلة: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[القيامة:20-21]؛ والمسلم من روَّض نفسَه وحملها على تقديم الآجلة والآخرة على العاجلة والدنيا، في كلِّ ما يأتي وما يذر.

- إنَّ النصر المبين، وفتح مكة، لم يزد النبيء ﷺ إلاَّ تواضعا؛ فدخل مكَّة وهو يركَب ناقته، ويقرأ سورة الفتح، وكان يطأطئ رأسه حتى لتكادُ تمسُّ رَحله شكرا لربه تعالى، ولما جاء على باب الكعبة قال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[السيرة النبوية لابن كثير].

من الفكر إلى الفعل

- لا يحاسَب المرء على ما يختلج في قلبه مما لم يحقق، ولكن يحاسب على ما حققه بالعمل قولا أو عملا.
- مهما بدا ليلُ الكفر والظلم بهيمًا، فإنَّ الوعد من الله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وهي قاعدة كلية، ولا بعيد عند الله جل في علاه.
- حين ينتصر المسلم يزداد تواضعا وقربا إلى الله، ورحمة وشفقة على العباد، بخاصة من انهزم منهم، حتى يترك لهم باب العودة مفتوحا.
- إنما سقطت البلاد المسلمة التي كانت مستعمرة يوم نالت استقلالها، ولم تدر أنَّ اختبار النصر أصعب وأشق من امتحان الهزيمة.
- حين يتحقَّق النصر وجب على المؤمنين أن يستغفروا ربَّهم، ويتوبوا إليه، ويقيموا الصلاة، وينشروا العدل والقسط في الأرض.
- للقراءة: «**عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي**» شوقي أبو خليل.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ ﴿14﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارًا لِلَّهِ﴾: الإسلام دينٌ ممتدٌّ من لدن سيدِنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يوم القيامة؛ والإيمان بجميع الأنبياء وبكلِّ الكتب التي نزلت عليهم، شرطٌ في إيمان المؤمِن؛ ومن أنكر نبيئًا أو كتابًا فقد كفر بما جاء به محمد ﷺ؛ وهذه خاصيَّة لا تعرفها أيُّ ديانة أخرى من الديانات التي يتبعها الناس اليومَ بعد أن حُرِّفت.
- ولذا بشَّر سيدنا موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بخاتم

النبيين محمد ﷺ؛ وها نحن نقرأ أمرا من الله تعالى للمسلمين بأن يترقَّوا ويكونوا أنصارا لله مثل الحواريين، أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- نصرةُ الله تعالى هي نصرةٌ لرسوله ﷺ، ونصرة لدينه الذي ارتضاه، وللحق وأهله كما أمر سبحانه، ولجميع المؤمنين المرضيِّين عند الله تعالى.

- ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ اَنصَارِيَ إِلَى اللهِ﴾: الحواريُّ من الحُوار وهو البياض؛ والحواريُّ هو مبيَّض الثياب؛ سُموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل كنايةً عن بياض قلوبهم؛ والحواريُّ الذي أخلص واختير ونُقِّيَ من كلِّ عيبٍ؛ وحواري النبيء هو الناصر والمؤيّد له.

- والحواريون هم تلاميذ سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما سماهم القرآن الكريم، وهم اثنا عشر عددًا؛ وأمَّا حواري سيدنا محمد ﷺ فقد ورد في قوله: «**إنَّ لكل نبي حواريًّا، وحواريي الزبير**»[السنن الكبرى للبيهقي] أي الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- سأل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الحواريين: من منكم يكون معي متوجها إلى نصرة الله؟ أي من منكم ينصرني نصرةً لله؟

- ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾: أي نحن المختصُّون

بنُصرة الله ورسوله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ وذلك بأن ننصرَه في نشر الدعوة، والصبرِ عليها، وإعلاء كلمة الله تعالى، والجهاد في سبيله، وطاعة أوامره، والانتهاء عن نواهيه.

- ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾: في دعوة سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تفرَّق بنو إسرائيل طائفتين: طائفةٌ آمنت، وطائفةٌ كفرت؛ طائفةٌ صدَقت في قولها: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ﴾، وطائفة خانت العهد والوعد والميثاق.

- والحالُ أنَّ هذا الانقسام هو نفسه سيكون في أمة محمد ﷺ، بين مصدق ومكذب، ومؤمن وكافر؛ وهو سنة الله في خلقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾: كما أنَّ بني إسرائيل اختلفوا وتفرقوا مؤمنين وكافرين؛ ثم إنَّ الله تعالى أيد المؤمنين، وأظهر أمرَهم، فغلبوا وانتصروا؛ كذلك الحال مع أتباع سيدنا محمد ﷺ المخاطَبين بهذه الآيات؛ فإنَّ مِنهم من يكفر فيُهزم ويذِلُّ، ومنهم من يؤمن فيؤيده الله تعالى على الأعداء من كفَّار قريش وغيرهم، ويُظهر دينَهم الحقَّ، وقد كان من قبل مقهورًا مغلوبًا.

- الله تعالى رحمة بالمؤمنين: صدَق وعده، وأيَّد عبده، وأظهر دينه.

التشغيل والتفعيل

- عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**».
- في سورة آل عمران، وفي معرض قصَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، نقرأ ما يُكمل مشهد استنصار عيسى للحواريين؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنَ اَنصَارِيَ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ ءَامَنَّا بِالله وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[الآية: 52].

من الفكر إلى الفعل

- نصرةُ الله تعالى للمؤمنين وعدٌ منه سبحانه لا يُخلفه الله إلى يوم الدين؛ لكن شريطة أن لا يخلِف هؤلاء ما وعدوا الله عليه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَّنصُرُهُۥٓ﴾.
- إذا اجترح المسلمون السيئات سلَّط الله عليهم أعداءهم فأذاقوهم طعم الهزيمة.
- يجب على المسلم أن ينصر الحقَّ وأهله، ويحارب الباطل وأهله؛ ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ هي قاعدة كلية، وسنة من سنن الله تعالى لا تتخلف.
- للقراءة: «**بين الرشاد والتيه**»، «**في مهب المعركة**»، «**الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**» مالك بن نبي.

الحمد لله

فهرس الآيات

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا...﴾ 23
﴿إِنْ يَّثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمُ أَعْدَآءً...﴾ 30
﴿لَن تَنفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلآ...﴾ 35
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمُ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ 41
﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً...﴾ 49
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمُ إِسْوَةٌ...﴾ 53
﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَّجْعَلَ بَيْنَكُمْ...﴾ 57
﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ...﴾ 62
﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ...﴾ 67
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَآءَكُمُ...﴾ 72
﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ اَزْوَاجِكُمُ... ﴾ 79
﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ...﴾ 84
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا...﴾ 91
سورة الصف 97
﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلهِ...﴾ 97
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ...﴾ 102
﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي...﴾ 107

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ...﴾ 112
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ 117
﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى...﴾ 122
﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ...﴾ 127
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى...﴾ 131
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلَ اَدُلُّكُمْ...﴾ 135
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ...﴾ 140
﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ...﴾ 145
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا...﴾ 149